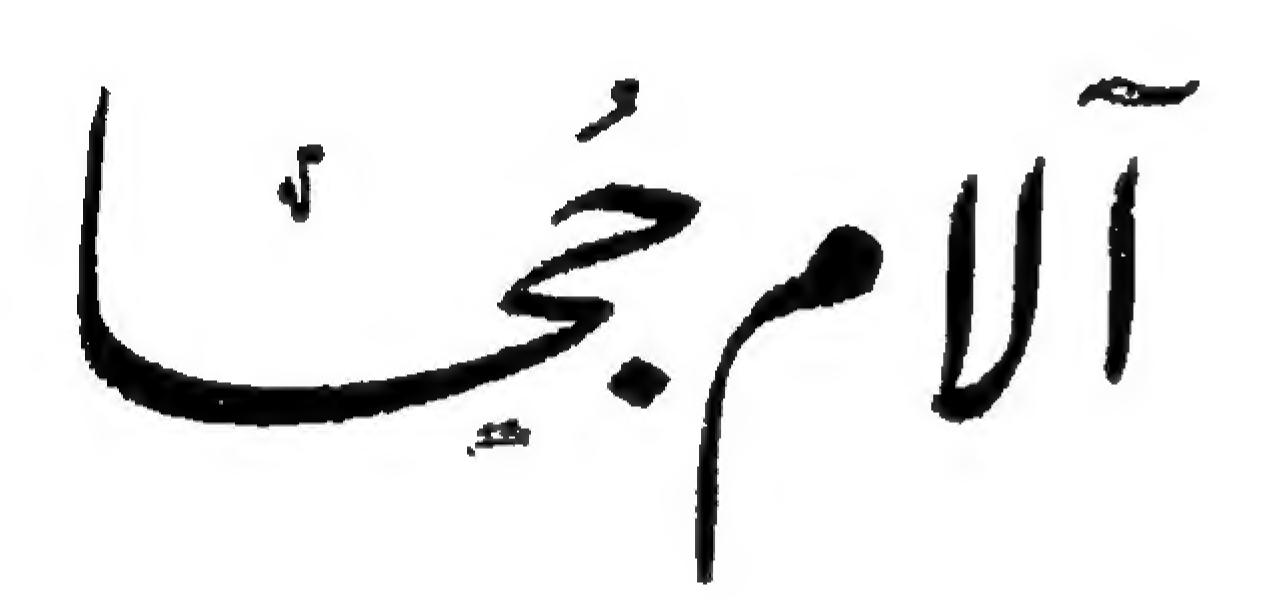

آلام جحا
محمد فريد أبو حديد
دار المعارف

محمد فريد أبو حديد





ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

١

مضى عليّ أربعون عامـًا وأنا على هذه الأرض . وهأنذا أنظر إلى ورائى ، إلى هذه السنوات الطويلة فأرى أقصاها كأنه الأمس القريب لم تمض عليه إلا ليلة . فما معنى الزمان وما معنى السنوات التى نعدها ؟ ما زلت أنا جحا الذى عرفته فى سن العشرين والعشر ، لم يتغير منى شىء سوى أن صلب عودى وجمدت مفاصلى وزدت فى الطول والعرض شيئـًا ، وما زلت أغضب وأرضى وأحب وأكره وأندفع مع حماقة البشرية كما كنت أفعل صغيراً . إن الحكمة لم توهب للبشر وإن كانوا يدعونها .

لقد كنت أحسب أن الأربعين إذا بلغتها توفى بى على سن الكمال ، فإنها السن التى كان الأنبياء يبعثون فيها . ولكنى لم أجد فى نفسى تبدلا وقد بلغتها . فما زلت كما كنت حائراً خائبـًا أهيم فى خيالى ولا أعرف من أمور الحياة أمراً .

لقد تعودت أن أصارح نفسى ولا أخادعها وأنظر إلى عيوبى فلا أسترها ، ولست أدرى كلما تأملت أحوالى أأبكى أم أضحك منها . لست أحسن فى الحياة إلا أن أهيم فيها على وجهى قانعـًا بما تقع عليه عيناى من مجالى هذا الكون العجيب الذى يهزنى بجماله وجلاله . فإذا غمرتنى الهزة أنطقتنى قائلا « سبحان ربى » وأبعد فى التأمل حتى أغيب عن وعيى ، والناس ينظرون إلى وهم يسعون ويكدون ويتزاحمون على ما أسميه حطام

الدنيا فأراهم يمضون عنى ويبسمون سخراً ، فأوشك أن أسخر منهم وأضحك من جهالتهم ولكنى أعود سريعاً إلى نفسى فأردها عن السخرية ، فإنى لا أدرى أأنا خير منهم أم هم خير منى .

وأضيق أحياناً بما ألقاه فى مصبحى وممساى ، وأنكر ظلم الأحياء وأمتلىء عليهم بالحنق أحياناً ، فإذا ما أذهلتنى ضربات الحياة وعثراتها وقفت بين الناس أضحك حتى يتحلقوا حولى ويضحكوا لضحكى . فإذا نطقت بما فى قرارة قلبى حسبوا أننى أهرف وأخلط فيزدادون منى ضحكاً . أهذا قضاء الله الذى قدره لى ؟

لم يهب لى الله ما وهبه لهؤلاء الذين يضطربون فى الحياة فيصارعونها . لم يهب لى مالاً أسند إليه ظهرى ، ولا حيلة أكيد بها وأعتمد عليها ولا جمالا فى خلقتى ولا بسطة فى قوتى . ولكنه وهب لى قلباً يحس عظمته وبجلال خلقه وكفانى هذا وحسبى !

ولست أملك من دنياى إلا هذه الدار التى خلفها لى أبى من تراث أجدادى . وقد كانت بها حديقة أدركت خضرتها فى صباى ، ولكنها اليوم صحراء جرداء بلقع . فليس بها من آثار الخضرة إلا جذوع كالحة ونخلات شعثاء . وقد تهدمت ساقيتها وكسرت قواديسها وانقطع ثمرها . ومع ذلك فإننى أحبها ولا أرضى أن أبيع منها قيراطاً وحسبى من الحديقة سعتها . بل إننى لست أرضى أن ينقطع دوران الساقية ، فلا يزال الثور يدور بها ويعجبنى أن أسمع نعيرها إذا صفا الليل وهدأ الكون وسطع البدر ، فإن صوتها يقع فى أذنى أشهى من الألحان ، وحسبى من ساقيتى نعيرها .

وقد تهدم سور البيت فصار لا يحجب أهل الفضول ولا يمنع الدخيل ولكن ما ضرنى من ذلك والأسوار لا تقام إلا إذا كان صاحبها يخشى على ذهب عنده أو جوهر ؟ وأنا بحمد الله ليس عندى منها ما ينغص على عيشى . خرجت يوم بلغت الأربعين إلى ظاهر ماهوش لعلنى أستوحى فى ذلك اليوم ما يحيل جدبى إلى خصب ، أو يدخل نوراً إلى ظلام القلب. وكان الربيع يخلع على الريف رداءه ، وحقول البرسيم الخضراء تتموج تحت أذيال النسيم رطبة يانعة ، والفول يملأ الهواء عطراً من نواره الجميل ، ومروج القمح كأنها لوحة فنان أبدع فى مزج ألوانه فهى زبرجد فى ذهب ، وحوافى النهر ترقص بما عليها من أعشاب وأزهار . فلو شئت أن أتغنى بما وقعت عينى عليه من الجمال لما أبقيت موضعاً لغيره من الحديث . وحسبى أن أقول إنه السحر الساحر وسبحان مبدع الكائنات. فسرت صامتاً وقلبى يثرثر وروحى يحلق حتى بدا لى العالم كله كأنه ذرة على ساحل المحيط ، وهانت عندى الحياة وما فيها من هموم صغيرة . حقا ما أصغر هموم الحياة !

كنت أميل إلى العود الضئيل من العشب فأرفعه إلى عينى وأحاول أن أرى ما فيه من جلال الإبداع ، فيرتد عنه بصرى حسيراً . وأرى الذبابة على العود أو البعوضة فوق الورقة أو النحلة ترف على الزهر فأتأمل الإبداع بعد الإبداع وأغمض عينى خوف أن يعشيها نور الجلال . فأصيح بغير وعى « يا ألله! ».

ورأيت شجرة جميز على جانب الطريق ، وكنت كثيراً ما أستريح فوقها إذا تعبت من طول جولتى . وتلك عادة تعودتها منذ صغرى ، فقد

طالما كنت أقضي الليل راقداً بين الغصون كأنني بعض الطيور في أوكارها.

وجلست أقلب نظرى فى الأفق البعيد وفى ظل الشجرة القريب ، فما وقع إلا على جليل من المعانى تومض فى ومضات كنار الجبل إذ آنسها موسى . فلا أكاد أسمو بنظرى إلى قبس منها حتى يرتد طرفى كليلا .

وفيما كنت فى مجلسى أهيم فى مدارج السماء ، إذ جذبتنى حركة على الأرض . فالتفت إلى الطريق فإذا بى أرى موكباً يحيط بهودج ، وهو متجه نحو ماهوش مقبلا من ناحية قصر نزهة السلطان . فكدت أصرف النظر عنه وأعود إلى هيامى فى فضائى ولكن ما أعجب الإنسان إذ ينقلب من السماء إلى الأرض يجذبه إليها عنصر الصلصال ! كان الموكب باهراً لا تقع فيه العين إلا على وهج من الحرير والجوهر أو بريق من الحديد والذهب . فخشعت فى مكانى وجلست أرقبه حتى مر وصار الهودج حيالى . فإذا بى أرى الستر مزاحاً ، وألمح من ورائه فتاة سبحان الخالق القهار ! كان وجهها سافراً عن فلقة من بدر ، أبيض فى حمرة كأنه وردة تتفتح فى الربيع . وكانت تنظر إلى المروج الخضراء باسمة ، وترمى بلمحات من عينين لا أستطيع أن أصور ما فيهما من حلاوة . فخفق قلبى خفقة أحسست منها كأنه غاص فى صدرى ، وصحت صيحة مكتومة « أهذه علية ؟ » وأغمضت خشية الفتنة ، ولكن عينى لم تطاوعانى — غفر الله لى — فعدت أنظر إلى تلك الخلقة البديعة وعاد قلبى إلى خفقانه وعادت إلى ذكرى عزيزة فهزهزت كيانى . إنها علية الحبيبة حقاً . والتفتت الفتاة فاضطربت غدائر شعرها الأسود حول عنق فى بياض الزنبق

ورأيت جبينها الواضح وأنفها الجميل، وكانت تزيح جانب الستر بأنامل منعمة فوقها معصم أنيق يتوهج بالجوهر . فدار رأسي حتى كدت أسقط من مجلسي ، وتعلق بصري بأعقاب الموكب حتى غاب عن عيني . فنزلت ولا أدرى إلى أين أسير، شاخصاً إلى الهودج كأنني أنجذب نحوه قسراً . وسرح خيالى إلى أيام شبابى إذ كنت أهيم بمن استأثرت بفؤادى، علية التى بهرتنى وفتنتنى . أواه إننى لا أذكرها إلا خفق قلبى وأضاء الكون حولى . كانت علية فى شبابى علالة النفس إذا صحوت ومؤنسة الأحلام إذا أغفيت . كنت أقف الساعات أنتظر حتى تمر على، فإذا مرت سرت وراءها مباعداً حتى تغيب عن عينى ثم أعود فأقف حيث كنت فأبقى ساعات أخرى حتى ترجع لكى أتزود منها بنظرة أخرى . لشدما كنت سخيفاً شقياً إذ ضعفت وجبنت وتركت منافسى السمج يفوز بها . وا أسفاه علىّ وعليها! فإن ذلك المنافس أشقانى وأشقاها . ما كان أشد حمقى وسوء حظى إذ ترددت ولم أجاهد لأنتزعها منه انتزاعاً! نعم كنت فقيراً وكان غنياً ، وكنت قبيحاً وكان جميلا ، وكنت هين الجاه وكان وجيهاً . ولكنى كنت أملك حبى وقلبى وكان ذلك خيراً لها من ماله وجماله وجاهه . ولم يمهلها الأجل فاهتصرها فى رونق الشباب وسرت وراء نعشها . فكان قلبى يدمى حتى شيعتها إلى قبرها . عفوك يا علية فقد كنت مذنباً تعساً، أو لقد كان هذا قضائى . ولقد خيل إلى بعد أن فقدتها أن قلبى قد أغلق وجمد واستقر على بلواه، وما كنت أحسب أنه سوف يخفق مرة أخرى . ولكنه فى ذلك اليوم خفق وتوهج فيه القبس الخابى .

لست أدرى : أعادت علية إلى الحياة وكانت هناك فى الهودج تمر أمامى؟ لقد رأيت فى الهودج عينيها وجبينها وغدائر شعرها ولفتة جيدها . أكنت أهذى إذ رأيتها ولم يكن ذلك إلا خيالا ؟ أم لقد مر الهودج حقاً أمامى وبدت صورتها حيالى ؟

وسرت بين الحقول أهيم ولا أحس مواقع قدمى ، ولا أرى شيئاً مما يحيط بى حتى تنبهت إلى صوت ينادينى . فتلفت كأنى أستيقظ من حلم فإذا بى أرى صديقى أبا النور أمامى .

لله يا صديقى! فليس لى فى ماهوش كلها قلب أطمئن إلى رحمته غير قلبك . فلما نظرت إليه بادرنى قائلا :

ـــ أين كنت منذ الصباح ؟

فقلت فى ارتباك ،

ـــ على الأرض حيناً وفوق الشجرة حيناً .

فقال فى عطف : وإلى أين ؟

فتلفت حولى ، لأعرف أين ـــ كنت ، ولكن اضطراب حواسى كان يذهلنى فقلت :

ـــ إن شئت الحق فإنى لا أدرى .

فأخذنى من ذراعى وخرج بى يسير نحو الطريق ، وعند ذلك تبينت أننى كنت أسير فى حقل حديث عهد بالرى وأنا أغوص فيه وأخبط على غير هدى .

فلما صرنا على الطريق قال صاحبى :

ـ أتحب العودة إلى ماهوش ؟

وما كنت لأنصرف عن الصورة التى ملأت فؤادى فسألت قائلا :

ـ أرأيت هذا الموكب الذى مربى ؟

فلم يزد على أن قال :

ـ نعم رأيته .

ثم سكت كأن الأمر لايستحق إلا تلك الكلمة القصيرة . فأعدت قائلا :

ـ أوقعت عينك عليها ؟

فنظر أبو النور نحوى بعينيه الفاترتين وقال متعجباً :

ـ من تعنى ؟

فانطلق لسانى قائلا : علية !

فأحسست يده تشتد على ذراعى وقال فى رحمة :

ـ هو موكب ابنة السلطان يا صديقى .

ثم حرك شفتيه يقرأ هامساً .

فلم أشعر إلا وقد اندفعت أصف محاسنها ، وكنت أتعجب من الحرارة التى تتدفق فى بيانى . نعم كانت نفسى تعجب من نفسى .

وزات قبضة صاحبى على ذراعى شدة ، وخيل إلى أنه يحاول أن يسندنى . فتمالكت نفسى وأمسكت لسانى ، وسرت إلى جانبه صامتاً وهو يقودنى ، وعدت إلى صورة الهودج أتمثلها وأتأمل محاسنها ، ثم صحت فجأة :

ـ أهي ابنة السلطان حقاً ؟

فحرك أبو النور شفتيه ، ولكني سمعته يهمس مستغفراً .

فأعدت سؤالي عليه ، ولم أرد به إلا أن أعرف إذا كان صاحبي قد رأى الموكب حقاً ، فقد داخلني الشك أن يكون ما رأيته من أشباح وهمي . ولكنه قال :

ـ هكذا قال حراسها .

فهدأت نفسي قليلا وعدت إلى صورة الفتاة أناجيها . وما ضرني أن تكون تلك علية التي أحببتها في شبابي ، أو أن تكون ابنة السلطان أو غيره من الخلق فلم أكن أطمع في غير صورتها وتلك قد احتواها قلبي وحسبي .

٢

هكذا يسقط الإنسان من السماء إلى القرار السحيق فجأة . فقد بلغت داري ورأيت امرأتي ريمة أمامي . وما رأيتها يوماً إلا وقع في نفسي أن صاعقة تريد أن تنقض علي ، أو أن الأرض تريد أن تنهار من تحتي ، أو أن الدنيا شعلة من النار ، أو أن نورها قد انطفأ ولفها الظلام . أين هذه الزوجة من علية التي فجعت فيها ؟ المسكينة علية ! أهي قد ماتت حقاً ؟ أم أنها هي التي رأيتها في الهودج والموكب العظيم يحرسها ؟ وماذا يعنيني إذا كانت هي هذه أو تلك ؟ فإنما تصاحبني صورة في قلبي لا تتغير ولا تتبدل ، وسواء علي أكانت صورة ذلك الجسد أو ذاك . أين ريمة امرأتي من تلك الصورة ، صورة علية ، أو صورة ابنة السلطان ، أو هي صورة علية ابنة السلطان في آن ؟ إن ريمة امرأتي لا تدع فرصة إلا انتهزتها لتنكيد عيشي وتسويد أيامي ، فلا أراها إلا مخالفة معاندة ، لا يعرف السلام سبيلا إلى قلبها . ما قلت لها يوماً هذا شرق إلا كان جوابها « بل هو غرب » . وإذا قلت « هذا أبيض » قالت « بل هذا أسود . أليس لك عينان ؟ » وقد أقول لها يوماً مخادعاً « هذا يوم سعيد إذ أصطبح على وجهك » وأحسب أني بذلك أداهنها وأسل خبثها ، فتأبى إلا أن تجيب « أما إنه ليوم أغبر منحوس » . وهي تخالفني في كل شيء وفي كل معنى . فأنا رجل نحيف الجسم وهي مثل فرس البحر كأنها تأكل مع عميان ، وأنا خفيض الصوت وهي إذا نطقت كأن في

حلقها بوقاً . وأنا أحب الصمت وهى تتكلم بلسان ذى ثلاث شعب. وأنا أحب النور وهى تهوى الظلام ، فإذا فتحت نافذة أغلقتها وإذا أوقدت مصباحاً أطفأته . وإذا سكت ثرثرت وإذا تكلمت التوت عنى فما تنطق .

وهى فوق هذا كله تتعمد أن تكون الحياة على غير ما أرضى ، وتتعمد أن تحب كل ما أكره وتكره كل ما أحب .

كنت عائداً إلى بيتى بعد صلاة العصر فمررت بحانوت فاكهانى ، ورأيت عنده برتقالا كأن لونه من الذهب ، وكأن رائحته عطر المسك ، وكانت الواحدة منه مثل الرمانة الكبيرة . فحدثت نفسى أن أشترى منه لأولادى ، ومددت يدى إلى جيبى فلم أجد درهماً . فسرت فى طريقى أحدث نفسى بذلك البرتقال ولو كان معى دراهم لاشتريت منه بعشرة . ولما بلغت الدار كان همى عظيماً إذ دخلت إلى عيالى بغير تلك الفاكهة الحلوة ، وأردت أن أخفف من ثقل الهم على نفسى فقلت لامرأتى :

ــ لقد رأيت اليوم برتقالا لم أرمثله فى حياتى .

فأجابت فى فتور : وأين نحن من البرتقال ؟

ثم تنهدت .

فقلت : وكنت أحب لو اشتريت منه بعشرة دراهم ، لولا أننى لم أجدها فى جيبى .

فصاحت فى غضب : عشرة دراهم ؟ أكنت تريد أن تبدد دراهم عشرة فى شراء برتقال ؟

فقلت : أما إنه لبرتقال عجيب .

وشرعت أصف لها لونه وريحه وحجمه . ولكنها صاحت بي :

ــ لقد عرفت أنك أحمق الرجال .

فغضبت وقلت لها :

ــ وما ضرك لو تفكه الأطفال مرة ؟

فأخذت تصيح بي وتسبني ، حتى جاء أبو النور من بيته على صياحها ، وأقبلت عليه أقص عليه القصة ، وكانت امرأتي تقاطعني وتسفه رأيي . فأراد الرجل الطيب أن يطفئ نيرانها فقال لي يلومني :

ــ الحق مع امرأتك . فإن عشرة دراهم لا تبذل فى شراء البرتقال لأمثالنا .

ثم أراد إرضائى فقال :

ــ أما كان يكفيك أن تشترى بخمسة دراهم ؟

فأردت أن أهدئ المرأة فقلت :

ــ لا بأس يا صديقى ، كانت الخمسة تكفى ، ولن أرد لك قولا .

فخجلت ريمة من عنفها ، وانتهزت الفرصة لترجع عن عنادها ، وقالت تخاطب صديقى :

ــ قل له يا أبا النور أما كانت الخمسة تكفى ؟

فقال لها أبو النور :

ــ صدقت . وقد اتفقنا جميعاً .

وهكذا سكنت العاصفة ، ولكنها سكنت لكى تهب مرة أخرى أشد عنفاً . فى ذلك اليوم جاء وقت العشاء ورأيتها تقلى بيضاً . وأنا أحب البيض المقلى إذا كان الزبد جديداً . فقلت فى نفسى لعلها تريد أن ترضينى

وتستسمحنى بعدما كان منها . وكدت ألوم نفسى على غلظتى فى مخالفتها . فلما أعدت السفرة ودعت الأولاد للعشاء نظرت إلى فى خبث ثم مدت يدها إلى علبة فيها بهار وفلفل . وأهوت على طبق البيض حتى طمسته فصار لونه أغبر كريهاً .

وهى تعلم كراهتى للأفاويه فلست أطيق حراقتها ولا أقوى على حرارتها ، بل إنى لا أحب ريحها وأكره النظر إليها وأعتقد أن الله لم يخلقها لخير أبداً ، وأنه لا يبارك فى زراعتها ولا فى تجارتها وأن الأرض التى تنبتها لن تصيب إلا الذل وأن القوافل التى تحملها لا يبارك الله فى دابتها .

فلما أردت أن أردها عن خبثها قلت لها :

ـ إن هذا البهار يحرق حلوق الأطفال .

وبدأت أزيحه بلقمة عن وجه البيض فصاحت بى قائلة :

ـ قلت لك دعه فلا طعم لهذا البيض إلا بفضله .

فصحت قائلا :

ـ أما تشفقين على هؤلاء الصغار ؟

وأشرت إلى الأطفال وكانوا يأكلون ولا يبالون شيئاً .

فضحكت ساخرة وقالت فى قسوة بالغة :

ـ دع الأطفال فما تشفق إلا على حلقك .

فلم أجد بداً من القيام وأنا أغلى غيظاً .

هذه هى ريمة امرأتى التى سودت أيامى . فلم يكن لى من حيلة إلا أن أخرج إلى فناء البيت لأبترد فى هواء الليل من همى . وكان ضوء القمر يلف الأرض فى غلالة رقيقة ، فيجلو أرجاءها فى رفق ، لا يقسو عليها ولا

يتدسس إلى خفاياها . هناك يستطيع الإنسان أن يهيم فى عوالم الآفاق والسموات فى النور الخافت ، فيرى فى شعاعه الضئيل رقص الجان وعربدة العفاريت ومحاورة الأشباح وزيارة الأرواح إذ تهبط كلها إلى الأرض تحت أضواء القمر ، وتعبث وتنساب فى الأفق الغامض آمنة من النور الباهر الفاضح . وفى ذلك الليل الساجى رقدت مستلقياً على ظهرى ناظراً إلى الفضاء الذى لا نهاية له ، فكأننى انمحيت فيه وفنيت ، أو كأن الوجود كله قد انمحى وفنى فىّ ، فلم يبق من الوجود إلا ما بين جنبى ، أو لم يبق منى إلا هذا الوجود الصافى .

ورأيت النجوم الصغيرة تومض بشعاعها الضئيل ، وكأنها ترسل حديثها الصامت من وراء الفضاء فى جوف العماء ، تحدث بأسرار الكون الأزلى وتخبر عن القرون الخوالى حديثاً قصيراً لا يزيد على لفظ « كانوا » . فإذا ما سألتها عما وراءها وما يحيط بها ، وعن حقيقتها وهل بها أحياء مثلى أو فيها ملائكة لا تعرف هموم الإنسان . وإذا سألتها عن الكرسى الأعظم الذى يسعها ، لم أجد منها جواباً إلا لمعة تلمعها كأنها تجيب قائلة : « اخسأ » . فلا يسعنى إلا أن أقول « أيها العقل قف مكانك ولا تقلق هذا الكون السرمدى بثرثرتك » . وطرقت أذنى أصوات منبعثة من الساقية الصغيرة التى فى فناء دارى ، فتذكرت ذلك الفناء الذى كان فى أيام أبى بستانا يانعاً . لشد ما تغير البستان على يدى فأنا لا أصلح شيئاً ولا أصلح لشىء ! كانت هذه الساقية تدور كما تدور الآن ، وكانت ترفع الماء من قرار البئر فتروى به الشجر والزهر . ولكنها عقمت فهى

الآن لا تخرج ماء . أيها الثور الناعس المستسلم امض فى دورانك فليس كله عبثًا . أليس هذا الصوت الذى يدوى فى سكون الليل لحنًا يحيى هذا الفضاء الرهيب ؟ ماذا يعنيك إذا كانت الساقية ترفع ماء يروى النبات أو لا ترفع من الماء شيئًا ؟ حسبك من الدوران هذا النعير الذى يتردد فى سكون الليل فيكسبه جلالا و يملؤه خشوعًا . حسبك هذا الغناء الذى يشبه الترتيل والتسبيح ، ولا تكن أيها الثور أحمق مثل هذا الإنسان الذى لا يتحرك إلا لمطمع فى الحياة . إنك لن تصيب من الحياة إلا ملء مذودك من التبن أو الحشيش . كان كل شيء هادئ فى ذلك الليل يبعث على السلام والسمو ، فأحسست وأنا مستلق على أرض الفناء الواسع أن بالحياة أنغامًا متناسقة، ونسيت كل ما مر بى من الهم . الحياة حلوة لمن استطاع أن يكشف ما فيها من حلاوة . ولو لم يكن فيها سوى أن تستلقى على ظهرك فى ضوء القمر كما فعلت ، وتتأمل صور الكون الذى حولك ، أو التى فى حنايا صدرك ، لكان هذا حسبك . هناك يستطيع الإنسان أن يجد السعادة فى السلام الشامل .

وذهب خيالى إلى ابنة السلطان — أو هى علية ابنة السلطان . نعم هى علية لأننى لم أعرف اسمها، ولا بأس علىّ إذا مزجت اسم علية الحبيب بشخصها . وهناك استطعت أن أعيش حينًا معها لا تفرق بينى وبينها تلك الفوارق التى تحجبها عنى إذا ما طلعت الشمس . هناك لم أشعر بقوة السلطان ولا عظمته . هناك عند السماك التقيت بعلية ابنة علاء الدين بعيدين عن الأرض الضيقة وجهلها وسخفها .

لقد سمع الناس عن حبى وضحكوا منى وسخروا . نعم سمعوا به وسمعوه منى . وهل علىّ من بأس إذا جهرت بحبها وسمعت أصداء ترديدى لاسمها ؟ إن كل ما عندى كريم نبيل صريح ، فقلت وتحدثت وسبحت ، وسمع الناس قولى وسخروا منى . ولكن ماذا يعنينى منهم إذا هم سخروا وضحكوا . وقد أفضى صديقى أبو النور إلىّ بما يقولون ، وعنفنى على مجاهرتى بحبها ، وقال إنى أعرض نفسى للهلاك إذا أنا تماديت فى ذكرها .

يعجب الناس منى ، ويقولون إنى صعلوك أتطاول على مقام لا ينبغى لى أن أتطاول إليه . حقًّا إنى فقير ولست أدعى الغنى ، وضعيف الجاه ولست أدعى القوة ، ولكنى مع ذلك أدرك ما يفوت عقول هؤلاء . إن الأسرار تتفتح لى وينابيع الآيات تتدفق فى صدرى . ولست أعبأ بشىء مما يرغب الناس فيه ، ولا أرهب شيئاً مما يرهبون ، فما الذى يمنعنى أن أتطلع إلى من أريد ؟ وما الذى يلومنى الناس فيه من حب علية ابنة علاء الدين ؟ أيلومنى الناس على أننى أسبح الله فى حبها ؟ لست أتطلع إلى شىء غير صورتها ، ولن يستطيع أحد أن يحجب عنى العوالم التى أكشفها من تأمل حبها .

إننى أسمو بذلك الحب كما يسمو العابد فى صلاته . وهل الحياة كلها جسد ومادة ؟ إن روحى تهيم وتستطيع أن تقضى الأيام والليالى فى الأفق الأعلى ، تتغذى من ذلك الشجن الطاهر الذى يشملها ، وتتصفى من ذلك الهيام الحار الذى يصهرها . . . يا علية ابنة علاء الدين !

لن أكف عن التطلع إليك والتسبيح باسمك والتماس الحياة العليا من محبتك ، وإن لم تقع عينى عليك مرة أخرى .

٣

لو استطعت أن أقضى كل حياتى فى أحلامى لكنت رجلا سعيداً . ولكن أنى لى ذلك وأنا إنسان لا بد لى من أن أصحو ومن أن أرى وأسمع وأسير؟ أنى لى أن أعتزل فى أحلامى وأنا مرتبط بهذه الأرض وبأهلها ممن هم قريبون منى ومن هم بعيدون عنى؟ ولو كنت وحيداً معتزلا لهان علىّ الأمر ، ولكنى أعيش فى الناس ومع الناس ولا سيما إذا كانت لى امرأة مثل ريمة .

لقد سمعت امرأتى بما يقوله الناس عنى فى حب عليّة ، وكنت أحسب أنها إذا سمعت ذلك أصلحت من شأنها وقومت من اعوجاجها ، ولكنها ما كادت تسمع ما يقوله الناس حتى ركب الشيطان كتفيها كأعنف ما ركبهما منذ عرفتها . فلم تدع نوعاً من أنواع الأذى إلا ألحقته بى ، ولا صنفاً من صنوف الخبث إلا صبته على رأسى . وأرادت فوق كل هذا أن تذلنى فأذاعت هى الأخرى أنها قد عزمت على الزواج من السلطان نفسه .

لكم ضحكت عندما سمعت الناس ينقلون إلى قولها ! ريمة تريد أن تتزوج من السلطان ! لم يثر قولها فىّ إلا ضحكاً .

فلما رأت أن قولها لم يثر غيظى ، عمدت إلى حيلة خبيثة للانتقام منى ، فأثارت ضجة يتحدث بها العاطلون فى ماهوش يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . فإنها أذاعت فى الجيران أنها قد عزمت على الانتحار . ولو كان أمرها قد أدى إلى غايته لكان ذلك قضاء الله وانتهى إلى نهايته . والزواج من مثل ريمة ما هو إلا سباق على الموت بين الزوجين . فإذا كان لا بد من

الموت فليكن لها هى إذا شاءت . ولكن ريمة لم تهتد إلى ما يجب عليها أن تفعل ، وقنعت بأن صاحت وسبت واصطرعت وتخبطت ، ثم خرجت من الدار تجرى . ولم أدر ما كان قصدها من وراء هذا كله ، فتركتها وقعدت فى الدار هادئاً ، وأحسست أننى استطعت أن أتنفس حرًّا ، وقد هدأ الجو بعد خروجها .

وانصرفت إلى صورة علية ابنة السلطان أناجيها ، فلم أشعر بشىء حتى سمعت هيعة عالية وأصوات ولولة تطرق أذنى . فشردت أفكارى وقمت فزعاً ، فإذا بالحارة قد غصت بمن فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ . وما كادوا يروننى حتى علت منهم صيحة عالية « الحق يا جحا » .

فدهشت لهذه المفاجأة ولم أفهم المقصود من قولهم ، وماذا الذى ألحقه ؟ إننى رجل لم أستطع فى حياتى أن ألحق شيئاً ، فكيف لى أن ألحق شيئاً لم يقدر كل هؤلاء على أن يلحقوه . ووقفت ثابتاً أقلب فيهم بصرى .

فصاحوا بى مرة أخرى صيحة أعنف وأكثر حنقاً . ففتحت عينى وفمى وأشرت بيدى مستفهماً . فعلت منهم صيحة ثالثة فقالوا : « الحق امرأتك! » فانطلق لسانى قائلا : « وكيف ألحقها ؟ » .

فاختلطت الأقوال ولم أعرف كيف أجيب . قال قائل : « الحقها عند النهر » وقالت جماعة « إنها غرقت » وصاح آخرون « قد دقت علينا الأبواب » وقال شاب خبيث « أتتزوج عليها ؟ أما تخجل ؟ » فاندفع النساء يصرخن فى وجهى « يا سم ! أغرق نفسك وراءها يا قاتل » .

فلم أملك نفسى وشعرت كأننى أجرمت ، وعلانى خجل واضطراب ،

واندفعت بين الجمع فإذا بى أنساق مع تيار جارف من الناس حتى بلغنا جانب النهر . وتفرق الجمع كل فى جهة ، فبعضهم يجرى على الشاطئ ، وبعضهم يخلع نعليه فيخوض فى الماء ، وصاحت امرأة : « غوصوا فى الماء فإنها تحته بلا شك » . وصاحت أخرى : « بل لقد حملها التيار معه ، فانحدروا أسفل النهر » .

وصاحت ثالثة سليطة اللسان : « مالك واقفاً يا جحا كالحجر ؟ انزل إلى الماء وابحث عنها » .

ولكنى كنت أعلم الناس بامرأتى ريمة . فإن الناس إذا أرادوا الغرق قذفوا بأنفسهم فى الماء ، وأما هى فلم يكن عندى شك فى أنها تفعل غير ذلك . والناس إذا غرقوا نزلوا إلى القاع ولكنها لا يمكن أن تغوص . والتيار يحمل الغرقى معه إلى أسفل النهر ، ولكنها إذا غرقت لم تنس العناد ، فلا شك فى أنها تجعل التيار يحملها مكرهاً إلى أعلى النهر . هذا ما أعرفه فى امرأتى . ولذلك لم أبال شيئاً مما قاله الناس ، ونزعت نفسى من بينهم ، وأخذت أعدو نحو أعلى النهر . فلحق بى شبان منهم يريدون أن يردونى إلى ناحية أسفل المجرى ، ظناً منهم أننى أخطأت فى اتجاهى ، وظن بعضهم أننى قصدت الهروب . فصحت فيهم وقد غضبت .

— دعونى أيها الحمقى ، فأنا أعرف منكم بامرأتى . إنها إذا أرادت الغرق فلن تتجه إلا نحو منبع النهر .

وكان الموقف لا يحتمل ضحكاً ولا فكاهة ، ولكنى سمعت من الشبان ضحكاً كأننى كنت أمازحهم . فزاد غضبى ونزعت نفسى من بينهم

وجريت نحو أعلى النهر ، وتركتهم فى شغل من ضحكهم يعيدون كلماتى ويتفكهون بها .

ولما وجدت نفسى وحيداً سرت على مهل ، وتنفست مرتاحاً ، وجعلت أقلب وجهى فى شطئان النهر ، وكانت الأعشاب تغطيها غضة خضراء ، والزهر يوشيها والطير يزقزق فوق أغصان الصفصاف والسرو . وكان جمال المنظر يبعثنى على إطالة السير ، ولم يخل قلبى من خطرات خطرت عليه من ذكر الحبيبة ابنة علاء الدين . وفيما كنت سائراً أجيل بصرى فى هذا الحسن الباهر لاح لى سواد تحت شجرة على نحو مائة ذراع منى . فظننت ذلك إنساناً وقصدت إليه لعله رأى جثة ريمة امرأتى صاعدة فى النهر . وما كان أشد عجبى عندما بلغت الشجرة إذ وجدت أن ذلك السواد هو امرأتى ريمة نفسها ، وكانت جالسة على الشاطئ تدلى رجليها فى الماء وتحك قدماً على أخرى وفى يدها قطعة من قثاء تأكلها . فلم أتمالك أن صحت بها حانقاً :

— لقد صدق ظنى !

فالتفتت إلى وكان وجهها يشع شماتة وخبثاً وصاحت :

— أى ظن هذا الذى صدق ؟

فقلت غاضباً : كل الخلق يغرقون فى الماء وأنت تغرقين فوق الشط . وكل الغرقى يحملهم التيار إلى أسفل النهر وأما أنت فإنك تصعدين إلى أعلاه .

فقامت واثبة واستعدت لهجمة من هجماتها ، ولكنى كنت ثائراً والشرر يتطاير من عينى . فصحت بها .

— هلمى !

فلم تجرؤ على مهاجمتى وسارت ورائى فى انكسار ، حتى عدنا إلى القوم . وكانوا لا يزالون يبحثون عنها فى الماء متجهين إلى أسفل النهر خطوة خطوة . فلما رأونا مقبلين سارعوا إلينا ، واختلطت أسئلتهم حتى لم أسمع منها سؤالا . فقطعت عليهم سبيل الفضول وقلت لهم فى حزم :

— لقد كنت أعلم منكم بامرأتى .

فسكتوا ونظروا فى شىء من الغيظ إلى ريمة ، كأنها قد خيبت أملهم فى غرقها . وسرنا فى موكب متهامس حتى بلغنا ماهوش ، وعدت بامرأتى إلى دارى .

هذه هى امرأتى التى لا تخجل من أن تضع نفسها إلى جانب صورة ابنة السلطان — صورة الملك الكريم الذى أسبح معه فى أعلى الملكوت مترنماً بالترتيل والتسبيح . هذه هى امرأتى التى لا ترضى أن يمر بى يوم بغير أن تدخل علىّ حزناً جديداً . هذه هى امرأتى التى لو شئت أن أثبت على القرطاس ما أعانيه من سوء عشرتها لضاقت بى الصحف وتكسرت الأقلام وجف المداد .

وليتها إذ تنغص علىّ عيشى بخلافها وسوء عشرتها تعرف شيئاً من معنى الكرامة أو الصدق . لقد عرفت من النساء من يشبهنها فى حمقها وشراستها ، ولكنى عرفتهن يندفعن مع ما فطرهن الله عليه من حدة الطبع والسلاطة وعرفت اندفاعهن صريحاً بسيطاً لا التواء فيه . فلهن العذر فيما لا حيلة لهن فى خلافه . ولكن ريمة امرأة تستطيع أن تضحك وأن تمرح ، وهى ذات حظوة عند لكيعات أهل الحى . فإذا اجتمعت بهن أو اجتمعن بها شغلن

الملائكة فى إحصاء حماقاتهن ، وأحفين أقلامهم فى كتابة أوزارهن .
وهى إذ تريد أن تملأ قلبى غيظاً تدبر لغيظها تدبيراً ، وتمكر وتحتال وتحكم مكائدها فى براعة توحى إليها بها شياطينها .

وهى فى كل مكرها تتعمد أن تذلنى وأن تجعلنى للناس سخرية وتعين أشياعها من الشياطين على أن يهزأوا بى من وراء ظهرى .

هذه هى ريمة امرأتى التى حكم القضاء على أن أقيم معها تحت سقف واحد ، وأن تكون لى منها ذرية تشاركنا ما نحن فيه من شقاء .

فكيف أستطيع الحياة على مثل هذا ؟ لمن شرع الله الطلاق إذا لم يكن قد شرعه لمثلى ومثلها .

أيها الناس من كان منكم زوجاً لمثل امرأتى ريمة فليطلق . لقد عزمت على الطلاق ولن أعيش مع ريمة بعد هذا أبداً .

ولكن أواه من قلبى ، إن لى ولدين من ريمة ، وما ينبغى لى أن أشقيهما بشقائى . عفوك يا عجيب ولدى وعفوك يا جميلة ابنتى !

٤

كلما تذكرت ولدىّ كاد قلبي يتقطع رحمة لهما ورقة ، ولن أقطع ما بيني وبين ريمة من أجلهما . إنهما بهجة عيشي لا بهجة لى غيرها سوى ذلك الخيال الذى يملأ قلبي من علية ابنة علاء الدين . فلأجعل هؤلاء عزائى ، ولأتحمل ما استطعت تنكيد امرأتي وسوء عشرتها . أى جميلة ابنتى ! إنك قطعة من كبدى ، وحسبي أن أقول من كبدي . وأنت يا عجيب ولدى . إنك الحبيب الخبيث معاً . وإن خبثك ليحلو لى وإن كنت فى بعض الأحايين أضيق به ذرعاً . وولدى عجيب من تلاميذ هذا العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم ناشئة جيل جديد قد تقدم ، وأصاب غير ما أصابت أجيال آبائه من الذكاء والعلم . وهو مثل أبناء جيله يسىء الظن بجيل الآباء بقدر إحسانه الظن بنفسه . ولا عجب فى ذلك فإنه أمر تقضى به سنة الكون منذ خلق الله جيلا بعد جيل . فكل جيل يبدأ فى تحصيل المعرفة ، فيظن أنه قد أوجد تلك المعارف أول مرة . وكل منها يذوق أول طعم تجارب الحياة فيكون كل شيء عنده جديداً فيحسب أنه قد كشف شيئاً لا عهد لأحد به من قبله . فلم لا يكون ابنى كذلك ؟ لست ألومه على ذلك الوهم فهو أمر طبيعى ، سبقته إليه ألوف من الأجيال . وكلما رأيته منتفخاً بأوهامه تبسمت ، وتذكرت أحوالى إذ كنت فى مثل سنه ، وأرد له دين الرحمة الذى كان لأبى فى عنقى . هكذا نحن نسدد ديون الآباء للأبناء .

ولو كان عجيب ابني يقنع بسوء الظن بجيل أبيه لوافقته واستحسنت صنعه فقد عاشرت هذا الجيل وعرفته معرفة لم تتح لابني . وكلما مرت الأيام بي زدت يقيناً أن هذا الجيل خلقة شاذة من السخف والجهل . ولست أبرئ نفسي فأنا كذلك خلقة شاذة من هذا الجيل ، فأنا شاذ فى جيل شاذ . ولكن المصيبة الكبرى أن ابني يحسن الظن بنفسه وبأبناء جيله ، مع أني لا أرى إلا زيادة متصلة فى التخليط والخبط .

وقد ولع ابني بما يسميه الأدب ، واستهتر به استهتاراً عظيماً ، حتى بلغ به الأمر أن صرف همه إليه ولم يبال ما يكون حاله فى مستقبل أيامه . حقاً إنني لم أصنع فى حياتي ما أحمده وقد تركت نفسي أتخبط مع الأيام فلم أحسن عملا ولم أستطع شيئاً وشهدت على نفسي بأنني لا أصلح فى صنعة . ولكني مع ذلك لا أريد لولدي ما جربت أثره فى حياتي . على أن ولدي قد فهم من الأدب القشور وغاب عنه اللباب . رأيته يوماً يشتري معجماً ، ثم رأيته يقبل عليه كلما وجد فراغاً ، فيحفظ من ألفاظه كل ما شذ واستعجم . وتعود بعد ذلك أن يستعمل تلك الألفاظ فى كتابته وحديثه وولع بعبارات يجمعها فى قراءته من كل ما هب ودب من كتب هؤلاء المساكين المخدوعين الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على طمس المعاني وإلقاء الألفاظ سحباً سوداء عليها تجعلها غامضة مبهمة . فإذا قرأ القارئ مثل هذه الكتب لم يدرك منها معنى فلا يسعه إلا أن يتهم نفسه ويسيء الظن بفهمه ، ويدفعه اليأس إلى أن يقول مع القائلين إن هؤلاء الكتاب من نوابغ الأدب . ولقد طالما صدع عجيب رأسي بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين . فهو

يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف السماء وبالنشوة التى تتمشى فى الظلال الناعمة ، وبالسحر الذى يتموج فوق مجالى النبضات اللانهائية . وقد كنت ليلة جالساً وحدى فى حديقة دارى ، أتمتع بضوء القمر الزاهى فسمعت ولدى يتغنى بأبيات مما يسمونه الشعر وكان لا بد لى أن أسمع غناءه وإنشاده ، فقد كان الليل ساجياً ليس فيه ضجيج أحتمى فيه من السماع . وما أزال إلى اليوم أقشعر كلما مرت أصداء تلك الأغنية بخاطرى . كانت شيئاً لا معنى فيه ولا وزن له ، ووالله لو كان ذلك شعراً لاستطاعت كل عنز فى حقول ماهوش أن تكون شاعرة .

كان عجيب يتغنى بشىء مثل هذا :

الشجر والطير والسحاب والنور والحب والضباب

فشعرت بدوار فى رأسى وغصة فى حلقى وصحت به : « اخرس » .

ولكن الخبيث أقبل نحوى فى حماسة شديدة ، وجعل يرجمنى رجماً متصلا بإنشاده حتى أوشكت أن يغمى علىّ . ولم أستطع أن أصرفه عنى إلا عندما قلت له :

ـ هذا مدهش فاذهب إلى أمك لتدخل به السرور على قلبها .

وقد عرف عجيب ابنى بالنبوغ فى الأدب بين لداته وتمكن منه الوهم فاعتقد أن الله قد وهب له من فضله ما لم يهبه لسواه. وجعل يسألنى عن أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحداً من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة .

وكثيراً ما أفضى إلىّ بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله . فتأخذنى الشفقة عليه فأهز رأسى صامتاً . فليمض كما شاء الله له ولا حيلة لى فى

صرفه عن وهمه ، والزمن وحده كفيل بحل مشكلات الحياة . إن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد هو لا كما يريد الإنسان . ولا عجب إذا كان ابنى يصبح كبير الأدباء فى عصره فإنى رأيت العصر يصير من فساد إلى فساد ولعل هذا الأدب الممسوخ يكون فى عصره آية الإبداع فى أنظار أهله ، والعبرة بأبناء ذلك الزمان لا بنا نحن . ومع ذلك فإنى لم أتمالك نفسى يوماً أن أخوض مع ولدى فى مناقشة صاخبة عندما سمعته يتحدث عن الأدب فى حماسة حمقاء . فقلت له ناصحاً :

— ماذا تريد من ذلك الذى تسميه الأدب ؟ حقاً إن اسمه محبب إليكم معاشر الأبناء ، لأنكم تسمعون منا أن الأدب محمود . ولكن الأدب الذى تتحدث عنه شيء آخر . فقال لى متبرماً :

— أتظننى لا أعرف معنى الأدب ؟ لقد حفظت تعريفه على شيخى ، وأنا أعرف عن عظماء الأدباء أكثر مما تظن . فضحكت وقلت :

— عظماء ؟ يا خبر !

فقال وقد نفخ صدره :

— بلا شك . إنهم عظماء وخالدون . وسأكون أحد الخالدين .

فقلت :

— إذن مت جوعاً .

وما كان أشد عجبى إذ سمعته يقول :

— فليكن ، وماذا على لو مت جوعاً إذا كنت من الخالدين بعد موتى ؟ إنها ضريبة العظمة . إنها ثمن الخلود .

فنظرت إليه وهززت رأسى أسفاً إذ أننى أبوه الذى جاء به إلى الحياة .

ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل تلك الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ؟ أم لعلها تنبت فى الرءوس بغير أن يلقى أحد بذورها كما تنبت الحشائش على جانبى نهر ماهوش .

ولو كان أمر عجيب ولدى لا يزيد على هذا الهراء لهان الأمر عندى، ولكنه كاد يؤدى به يوماً إلى الهلاك — حماك الله يا ولدى .

كنت يوماً جالساً فى الحديقة عند الساقية فمر بى عجيب وكان يقرأ فى معجمه . فلما اقترب منى نظر إلىّ باسماً فى خبث . وكان ظريفاً فلم يعرج علىّ ولم ينشد لى شيئاً من تأليفه ولا من محفوظه . فلما بعد عنى لم تبعد صورته عن ذهنى ، وجعلت أفكر فى حاضره وفى مستقبله وأسأل الله له الهداية . ثم جاء صديقى أبو النور فجلس إلى جانبى وأخذنا نتحدث فشاركنى فيما كنت فيه من التفكير فى أمر ولدى . ولما رآنى لا أرضى له صناعة الأدب سألنى فى سذاجة :

— وهل اخترت له صناعة أخرى تكون أجدى عليه ؟

فاندفعت قائلا فى حماسة :

— ماذا تقول يا رجل ؟ لقد حسبتك أعلم بالحياة من ذلك ؟ إن كل صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه المهنة أجدى على أى شاب يريد أن يحيا . فليكن طبيباً إذا شاء أو حجاماً أو منجماً ، فلن يزاحمه فى صناعته إلا من كان له شىء من العلم بصناعته . فالناس يفتحون أعينهم

ويسألون عن الطبيب قبل أن يسلموا إليه أبدانهم للعلاج ، ويسألون عن الحجام قبل أن يأذنوا له بأن يسيل الدم من عروقهم ، ويسألون عن المنجم قبل أن يعطوه أجره على تضليلهم . أو فليكن فقيهاً فإنها تجارة رابحة ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وأعمى عينيه من طول القراءة . أو فليكن خبازاً فالناس لا يتدسسون بين الخبازين إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف . فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا لأنه عند ذلك يصير صاحب حرفة محدودة معروفة ، لها قيود وفيها أسرار تمنعها عن الدخيل وتحميها من الدعى . ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه إلى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب .

وقد نسيت فى حماستى أننى أخاطب صديقى ، وحسبت أننى أتحدث إلى نفسى لا يسمعنى أحد غيرى ، ولكنى شعرت فجأة بهزة فى ساعدى . فتنبهت فإذا أبو النور يقول لى :

ــ أقول لك أما تسمع ؟

فسكت وتلفت حولى فطرقت أذنى صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض . فقمت مع صاحبى نركض باحثين عن مبعث الصوت فى أنحاء الحديقة ، فلم نجد شيئاً . واتهمنا أسماعنا وعدنا إلى الساقية نلقف أنفاسنا . وهممت أن أسأل صديقى عن رأيه فى الأشباح التى ترفع أصواتها فى الليل هل يمكن أن تصرخ فى وضح النهار ، وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا . فنظرت إلى صديقى مدهوشاً وهمست :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

ولكنى رأيته يذهب إلى شفة البئر التى تحت الساقية وينظر من فوهتها . فسرت وراءه وأطللت برأسى فماذا رأيت ؟ كان هناك رأس ولدى عجيب فوق سطح الماء ، وهو يحاول أن يسند نفسه على الجدار الأملس ويضطرب برجليه فى الماء . وسمعته يصيح :

ـ الوهس ! الوهس ! الوحى الوحى ، الجدار المتملس يحاور كفى وسراب الماء يداعب أنفاسى والهلاك المشمخر يراود أجلى .

وكان يريد الاستمرار فخشيت عليه وصحت به :

ـ اخرس ، ماذا الوهس وماذا الوحى ؟ وما ذلك الذى يداعب ويراود ويحاور ؟

فرفع رأسه نحوى وقال متحدياً :

ـ لقد رأيت الوهس قبل سقوطى فى البئر ومعناه الجرى السريع . وأما الوحى فمعناه العجل ، وأما الجدار المتملس الذى يداعب يدى فهى عبارة رائعة نقلتها عن الأديب الكبير . . .

وأراد المضى فى قوله فصحت به مرة ثانية :

ـ دع هذا وقل لى أين الحبل ؟ أين الحبل الذى كان هنا على بكرة البئر ؟

فقال فى انكسار :

ـ هو الذى انقطع بى وأهوانى فى ثبج الـ . . .

فقاطعته قائلا : قلت لك اخرس .

ثم نظرت حولى فلم أجد شيئاً أنقذه به ، حتّى وقعت عينى على عمامة صاحبي فنزعتها عن رأسه ثم نزعت عمامتى وأخذت ما حولهما من اللفائف ، وساعدنى صاحبي على برمها حتى صارت كالحبل شدة ثم دليناها إلى الولد فأمسك بطرفها وتعاونا على رفعه حتّى أخرجناه وهو مثل القط الغارق .

وأخذ صديقى لفافته وهو صامت فعصرها ونشرها ، وأما أنا فسرت عارى الرأس مع ولدى حتّى بلغنا البيت ودفعته إلى أمه قائلا :

ـ أصلحى أمره واعتنى به حتى لا يفجع الجيل الجديد فى كبير أدبائه .

فنظر إلى الخبيث وهو يرتعد من البرد وكاد يرد على جواباً لولا أن اصطكاك أسنانه لم يساعده على الكلام .

ورجعت إلى صديقى فوجدته لا يزال يهز أطراف لفافته ليجففها . فداخلنى إشفاق عظيم عليه وقلت فى حرارة :

ـ أشكرك يا صديقى فلولاك لهلك ولدى .

فقال أبو النور :

ـ لم ألاحظ شبهه بك إلا اليوم .

فلم أدر ماذا حدث بى عند ذلك ، ولكنى شعرت بالضحك يغلبنى وكان ضحكاً متصلا معدياً بغير شك . فما مضت لحظة حتّى كان أبو النور يضحك معى وهو يهز أطراف لفافته بيديه .

٥

كنت أسير فى طريق ماهوش — وما أعجب طرق ماهوش ! ففيها النقيضان الجمال والقبح والغنى والفقر والنظافة والوسخ والفن والفوضى — ورأيت فيما رأيت كلباً مسكيناً نستطيع أن نعد أضلاعه البارزة من تحت جلده . وكان كل شىء فيه يستدر الرحمة . وكان كلما اقترب منه إنسان انحرف عنه مسرعاً يتمايل من الضعف ، وقد وضع ذيله بين فخذيه ، فقد تعود النفور من أشباح البشر . وكان فى ركن الطريق كوم من الزبالة اعتاد الناس أن يرموا عنده فضلات منازلهم ، فاتجه الكلب نحوه يطلب منه رزقاً . مسكين أيها الكلب فإنك لا تجد فى ماهوش ملجأ آخر غير ذلك الكوم . فلما بلغ ركن الطريق رأيته فزع وتردد ، فقد رأى عنده شبح إنسان . ولكنه لم يلبث أن هز ذيله وتجرأ على الاقتراب منه ، إذ لم يكن ذلك الشبح سوى فتاة مسكينة مثله . فتحول نظرى إلى الفتاة ، وكان وجهها أسود مما علاه من القذر ، ويداها كأنهما عودان من حطب ، ووجهها النحيل كأنه جمجمة فى مقبرة .

ونظر الكلب إليها كأنه يحييها تحية الصباح قائلا « يا زميلتى » . فلم تخيب المسكينة رجاءه ورمت إليه بعظمة . نعم فلم تكن العظمة نافعة لها . ووقف الكلب يأكل عظمته ، على حين كانت الفتاة تقلب فى الكوم باحثة عن قشرة فاكهة أو قطعة خبز أو خرقة من ثوب بال . ولم أستطع أن أطيل النظر إليهما فانصرفت وقلبى يدمى ولكنى لم ألبث أن وجدت قلبى

يحملنى إليهما . حتى إذا ما بلغت الفتاة ألقيت إليها بدرهم كان معى ، ولم أجد عندى عظمة أخرى أرميها لصاحبها . أواه . أهكذا تنطوين على القسوة يا ماهوش ؟ ولما انصرفت عن الفتاة رآنى رجل يجلس فى حانوت فاكهانى قريب . فقال لى :

ــ ألا تعطينى درهماً يا جحا ؟

وكنت حزيناً فلم أجبه . فأعاد قائلا :

ــ أتؤثر النصرانية ؟ إنها نصرانية تلك التى رميت إليها الدرهم .

فلم أجبه إلا بنظرة أسف ، ومضيت فى طريقى أفكر فى هذه النصرانية المسكينة . ولو ملكت أكثر من ذلك الدرهم لعدت فرميته إليها . إن الله يطل على الكون بعين الرحمة لا يفرق بين الناس والحيوان ، فلكل حى فى هذا الوجود مكان فى رحمته . وإذا نحن وقفنا بين يديه يوم الحساب لم يكن لنا أمل إلا فى رحمته . وما أجدرنا نحن البشر أن نرحم ، لعلنا نكون أهلا للدخول فى رحاب الله . أى بلدتى الحبيبة ماهوش ، ألا تحبين أن تكونى أهلا لرحاب الرحمن ؟

لقد عشت ما عشت فى وطنى أحب هواءه وشمسه وقمره ، وأتمتع بماء نهره وخضرة حقوله وغناء طيره . ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أعيش بين أهله . ويخيل إلى أحياناً أننى قد أتيت إلى هذا العالم لكى أكون عبرة لغيرى . لست أصلح لشىء غير أن أعيش فى خيالى هائماً فى عالمى ، لا أبصر شيئاً مما حولى ، ولا أعرف لى سبيلا فى هذه الأرض التى لا أرى فيها إلا صوراً وأشباحاً . كاد يخيل إلى أن عالم الوهم هو الحقيقة ، وأن

هذا العالم الذى ألمسه وأراه وأسمعه وأشمه وأذوقه ليس سوى خيال .

تصدمنى الحياة كل يوم صدمة تذهلنى ، فأعود إلى عالمى الخيالى وأقنع بما فيه مكرهاً لأنه هو العالم الذى أستطيع أن أعيش فيه . فإذا ما حاولت أن أقترب من زحمة الناس تبين لى عجزى ونقصى .

ولو كنت لا أحمل إلا همومى لهان الأمر عندى ، لأننى ألقى قضاء الله راضياً . هكذا أنا وهذا قضائى ولا أملك إلا أن أرضى بحظى . لا أستطيع أن أكابر فى نصيبى ، فأنا لا أستحق إلا هذا النصيب عند العادل المهيمن على الكون .

لو كنت لا أعانى إلا ما يجره عليه طبعى لهان الأمر عندى ولكنى كلما تلفت إلى ما مضى وما حضر من أيامى لم أجد إلا أحمالا حملتها لم يكن لى وزر فيها . كانت كلها أحمالا ألقيت على كاهلى إلقاء ، لأننى لم أقو على ردها عن عاتقى .

وقد شبهت نفسى بصديقى العزيز « البطل الصامت » الذى يسميه الناس « حمارى » فهو يقضى كل حياته يحمل أحمالا ليس له فى حملها مصلحة ويقطع عمره فى جهد قاطع متصل لا يصيب منه لنفسه خيراً .

لقد تعود الناس أن يسب بعضهم بعضاً بوصف الحمار ولهذا فلست أرضى أن أشارك الناس فى سوء الأدب فلا أسمى ذلك الحمار إلا « البطل الصامت » فهذا ما يقتضيه العدل منى . والناس يعجبون منى إذا سميته كذلك ويضحكون ويسخرون ويحسبون أننى أريد أن أسوق إليهم فكاهة . يا للغباء ! ولكن ما ضرنى إذا هم ضحكوا وسخروا ؟ فلعل هذا يدخل إلى

قلوبهم شيئاً من السعادة البلهاء .

إن صديقي البطل الصامت أكرم عندي من كثير من هؤلاء الذين يحملونه أحمالهم ولا يتورعون عن إلحاق الأذى به ضرباً ووخزاً وشتماً . وهو مع ذلك يبذل جهده صامتاً صابراً قوياً حتى إذا ما تهدم وخارت قواه برك على الأرض وتجلد على الضرب القاسي . وهؤلاء الجيران لا يزالون كل يوم يقصدونني لكي يستعيروا مني صديقي ليحمل لهم أحمالهم فأخجل أن أردهم . فأذهب إليه أسأله عن رأيه ، فإذا بهم يضحكون مني ويحسبون أنني أمازحهم . فإذا ما رأيته صامتاً لا يجيب أذنت لهم به نائباً عنه ، فإني أعرفه صديقاً كريماً . ولست أظن أنني خير منه حالا . فإن جيراني يأتون إلى في كل يوم يسألونني أنا أن أحمل لهم أحمالهم فلا فرق بيني وبين البطل الصامت إلا أنني أحمل أشياء من صنف آخر غير ما يحمل . ولا أذكر يوماً أن جاءني واحد منهم ليؤدي ما عليه من دين ، أو ليتطوع بإحسان أو مواساة . ووالله لو تطوعوا بالإحسان إلي لما رضيت منهم إحساناً ، فإن نفسي تأنف أن تكون يدي السفلى .

ولكني أصف الحال كما هي وأفضي إلى هذه الكراسة بما في نفسي :

قد يكون لي على بعضهم دين فأحتاج إليه وأسعى في طلب الوفاء ، حتى لا أكلف المدين مشقة السير إلى داري ، فإذا عثرت عليه يوماً أزاغ بصره عني كأنه لم يرني . .

كانت لي عند الشيخ عماد الدين أمانة من مالي ، أقرضته إياها في أيام محنته . فلما عادت إليه الدنيا قلت في نفسي إن هذه فرصة لي وأن

أقاسي مر الحياة وضيقها . فلما ذهبت إليه عثرت عليه فى حلقة من الناس ، يلتى عليهم درساً . فما وقعت عينه على حتى أخذ يهز لحيته فى عنف ، ويبربر كما يبربر الأسد .

ومضت ساعة حتى فرغ الشيخ من درسه ؛ ولكنه بتى حيث كان حتى أتت طائفة أخرى فتحلقت حوله . وكان الشيخ ممن يعتقد الناس فيه ، فكانوا يذهبون إليه طلباً للبركة وإن لم يأخذوا علماً .

فلما طال بى الانتظار ضقت ذرعاً ، وثارت نفسى ، وكنت أسمع حديثه على مضض ولا أفهم منه حرفاً ، فقد كان الرجل يلتى هراء .

ورأيت بقائى عنده سفهاً ، فإن ساعة أقضيها فى ضوء الشمس أجدى على وأشرح لصدرى . وثار غضبى فصحت قائلا :

— يا سيدى الشيخ .

فنظر إلى مغضباً كأنه لا يعرفنى . فزاد غضبى وثار الدم فى رأسى فقلت له :

— أما تعرفنى ؟ أما رأيت من قبل وجهى ولحيتى ؟

فهز الشيخ ذقنه ولمعت عيناه لمعة مخيفة ، ثم نظر إلى نظرة قصيرة وعاد إلى الحلقة يريد أن يمضى فى درسه .

فغاظنى ذلك وصحت به :

— لا بأس على هؤلاء إذا غبت عنهم ساعة يا سيدى . فتعال معى إلى الدار لترد إلى أمانتى ، ولا ضير على تلاميذك أن يهز أحدهم لحيته فى مكانك حتى تعود إليهم .

ولست أدرى كيف أغضب الحق هؤلاء ، وقد كنت أحسبهم يشكرون صنيعي . فقاموا جميعاً في وجهي يشتمونني ويسفهون رأيي . فلم أجد بدًّا من الخروج ونظر الشيخ إلى شامتاً . وانصرفت وتركته يهز لحيته هزًّا عنيفاً .

وما كدت أعود إلى منزلى حتى سمعت طارقاً على الباب ، فقلت فى نفسى « من يكون هذا ؟ » وما فتحت المصراع حتى رأيت جارى جمال الدين يطل برأسه باسماً . وقد كان آخر عهدى به يوم جاء يطلب منى البطل الصامت ليحمل له بعض التبن ، فأذنت له به ، ثم اتفق أن مررت بداره عند غروب الشمس فرأيت منظراً يذيب القلب حسرة ، إذا كان من طبعه أن يذوب . رأيت البطل الصامت المسكين واقفاً عند باب البيت وعليه حمل من التبن يبلغ علوه قامتين وقد تربعت فوقه امرأته ، وكان رأسها يبلغ نافذة الدور الأعلى من الدار . وكان الشيخ واقفاً من وراء البطل الصامت يدفعه ويضربه ليدخله فى الباب قسراً وكان يصيح به وهو يضربه :

— حاحا ! يا حمار الكلب . حاحا ! لعنك الله ولعن صاحبك .

وكان البطل الصامت يحاول بجهده أن يدخل من الباب ولكن حمل التبن كان لا يريد أن يدخل ، وكانت المرأة فى أعلاه تصيح من فوق قائلة :

— اثن رجليه حتى يبرك فيقدر على الدخول .

فلما وقع نظرى على صاحبي المسكين فى تلك الحال غضبت وجريت لنجدته . ولكن جارى لم يرض عنى إذ تدخلت فى أمره ثم غضب فأمر

امرأته أن تنزل ، وألقى الحمل عن البطل الصامت فى حنق وهو يبرطم ، ثم دفعه إلى فى غضب .

عادت إلى تلك الصورة عندما رأيت رأس جارى يطل باسماً من وراء مصراع الباب .

ولم ينتظر حتى آذن له فى الدخول فحيا ودخل وسار أمامى متجهاً إلى المنظرة ، فلم أجد بدًّا من السير وراءه، ولم أملك نفسى أن نطقت بكلمات الترحيب والتأهيل .

ولما استقر به المجلس جعل يحدثنى عن أحزانه وآلامه ، وما نكبه الزمان به حتى نسيت كل أحزانى وآلامى وامتلأ قلبى له رقة ورحمة . ثم قص علىّ قصة بقرته وقد ولدت منذ ليلة ، وكان ابنها عجلا مشوهاً له صورة القرد وذيل الخنزير وحوافر البغل فأحسست ألماً ممضًّا من الحزن لهذا العجل المسكين ، حتى اسودت الدنيا فى عينى . ثم تنبهت إلى أن الذى يحدثنى إنما هو جارى جمال الدين الذى رأيته يضرب صاحبى البطل الصامت ويشتمه ويسميه حماراً . فداخلنى الجحود وقلت لنفسى « ومالى أنا إذا كانت عجول الناس شائهة الخلقة ؟ إن هذا لا ينبغى له أن يهمنى » .

وقوانى ذلك الخاطر فقلت لجارى فى جمود :

— ليس هذا من شأنى ، وإن كان لك أن تحزن عليه وتضيق به .

فدهش الحاج جمال الدين وخجل، ولكنى بقيت على جمودى وقلت له :

— أتريد منى شيئاً يا سيدى ؟ فإننى فى حاجة إلى الراحة .

فقال الحاج وقد اتسعت بسمته :

ـ ألا تساعدنى أيها الجار العزيز ؟

فقلت فاتراً :

ـ إذا كان ذلك فى طاقتى .

فقال ولا يزال باسماً :

ـ لا شك فى أنك تستطيع يا سيدى .

ثم طلب إلى أن أعيره (حمارى) .

هكذا قال وسمى صاحبى البطل الصامت (حماراً) أمام عينى .

فقلت وقد غلى الدم فى رأسى :

ـ سآخذ رأى « البطل الصامت» أولا .

فقال ضاحكاً : « البطل الصامت» ؟

فقلت :

ـ نعم هو « البطل الصامت» وأحب منك إذا عدت إلى ذكره مرة أخرى ألا تسبه فتدعوه « حماراً » .

فتبسم الرجل ولمعت عينه خبثاً ثم قال :

ـ سأفعل يا سيدى . وإذا شئت فقم إليه فخذ رأيه .

فلم أبال خبثه ، وقمت إلى المذود فمسحت رأس البطل الصامت وظهره ، فرفع رأسه إلى وجعل يتشممنى . فملت عليه وسألته بصوت مسموع :

ـ أتحب أن تخدم هذا الجار الذى عرفته ؟

ولست أدرى ماذا فهم البطل الصامت من قولى ، ولكنه نظر إلى

الحاج جمال الدين وأخذ ينهق نهيقاً عالياً .

فقلت لجارى : إنه لا يرضى .

فقال الجار وقد لمعت عيناه بخبث أشد :

— ألا تسأله عن السبب ؟

فملت على البطل الصامت فهمست له همسة ثم رفعت رأسى .

فقال الحاج : بماذا أجابك ؟ أراك تفهم لغته .

فلم أبال سخريته وقلت له :

— لقد قال لى إنه سمع فى صباه حكمة من شيخ فى قومه .

فضحك الرجل ضحكة مبتذلة ، ولكنى لم ألتفت إليه وقلت فى غير تردد :

— خير لك أن تأخذ الحكمة حيث تجدها : « حمار ما هو لك ظهره شديد » .

فنظر الرجل إلى نظرة تنفث سمًّا ، ثم قام سريعاً وأدار ظهره وخرج من الدار بغير أن يقرئنى سلاماً .

ألا ليتنى أستطيع ألا أحمل سوى هموم نفسى .

ألا ليتنى أقدر ألا أسعى إلا لخيرى ولا أنظر إلا فى مصلحتى وتدبير أمرى .

٦

لا أجد فى ماهوش كلها من له قلب يحمل المودة الصافية سوى صديقى أبى النور . هو كالماء الصافى البارد إذا اشتد الحر ، وكالنسيم البليل يمسح الجبين المحموم فى تواضع ، وهو كالنور يهدى ولا يصدم ... هو روح وذكاء وخير ومواساة . وهو يعطى من نفسه ولا يبدى ما ينم عن أنه يعطى . عيناه الغائرتان تملؤهما الرحمة ، وصوته الخافت ينبض بالإخلاص . حتى لحيته الخفيفة تبعث الثقة وتوحى بالصدق .

كنا جالسين نتحدث فى حديقة الدار — حديقتى الجرداء — ومر بنا الوقت سريعاً كما تمر ساعات الأنس . ثم لاح رجل يخطو فوق السور داخلا . واتجه الرجل إلى باب الدار ، وكنا نجلس فى ستر بعض جذوع الشجر على مقربة من الساقية . فقال أبو النور :

— قم إليه لعله رجل جاء يدعوك إلى وليمة ، أو لعله جاء إليك بهدية أو يرد إليك ديناً .

فقلت له : أما إنك لم تعرف الناس يا صديقى . لو كان كذلك لما تخطى السور صامتاً ، ولصاح معلناً حتى يعرف أهل الحارة فيم أتى .

وقمت مسرعاً إلى نخلة قريبة فاختفيت وراء جذعها ، وقلت لصاحبى

— قم أنت إليه وقل له إننى لست هنا .

فقام أبو النور يسعى إليه ، وكان ضعيف البصر ، فما رآه حتى كاد يصطدم به . ثم قال له فى تردد :

ـ جحا يقول لك إنه ليس هنا .

فصاح الرجل به :

ـ أما تستحى أن تكذب ؟

فغضب أبو النور وقال :

ـ لست أكذب فقد قال لى هذا .

فقال له الرجل :

ـ بل تكذب فهو هنا .

ولم أطق أن أسمع هذه المحاورة السمجة ، وأطللت برأسى من وراء الجذع فصحت قائلا :

ـ وما لحاجتك أيها الرجل فى شأنى ؟ ألم تسمع ما قاله لك ؟ .

ولكن الرجل الجرىء لم يعبأ بصياحى . فضحك وانطلق نحوى ومد يده إلى من وراء النخلة . فخجلت ولم أجد بدًّا من أن أمد يدى للسلام عليه . وما كدت أرفع عينى إليه حتى شهقت شهقة كمن رأى منظر عفريت فجأة . وصحت قائلا :

ـ أهو أنت ؟

فقال الرجل: نعم هو أنا . أنا صديقك القديم .

وكان حقًّا صديقى القديم الحاج جمال الدين .

فقلت له مرتبكاً :

ـ لا مؤاخذة يا سيدى . ولكنى أرجوك إذا أردت أن أعيرك البطل الصامت . . . .

فقاطعني في لهجة تنم عن خبث :

ـــ لا تخش يا صديقي فما بي من حاجة إلى البطل الصامت .

فانشرح صدري عندما سمعته يذكر البطل الصامت بغير أن يسميه حماراً ، ودعوته للجلوس معنا . فأخذ يثني علي ويترحم على أبي ، حتى لان قلبي له ونسيت كل ما كان منه . ثم بدأ يتكلم فيما جاء له . وكان قلبي يعوص في صدري كلما مضى في حديثه ، حتى كاد يبلغ كعبي .

نعم فقد جاء يطالب مني قرضاً ، ثلاثين درهماً نقداً وعداً . فتحركت حركة مضطربة كأنني أبحث عن مهرب ألجأ إليه ، ولم أجد سوى صديقي أبي النور فقربت منه ولزقت به ، والرجل مستمر في كلامه يصف شدة حاجته وصدق نيته في الوفاء ، ووعد ألا يبقي الدين عنده أكثر من أسبوع . ثم قال لي إنه في خطر من تطليق زوجه أم ولده ، إذا هو لم يجد عندي الدراهم الثلاثين ، فأكون أنا السبب في خراب بيته وتعذيب أهله وتفريق أسرته . ولست أكتم أنني شعرت بالرحمة تدخل إلى قلبي ؛ عندما تصورت الرجل وامرأته وأولاده ، وما قد أجره عليه من الويل إذا عجزت عن إغاثته . وجعلت أقلب الفكر وأتلفت حولي وأسأل نفسي عما عندي ، وأنا صامت حائر والعرق يتصبب من وجهي ويتقاطر على جوانب جسمي . وكان ما يزيد حيرتي أنني لم يكن عندي من النقود شيء مما يطلب مني ، وما كنت أقوى على الاعتذار له بقلة ذات يدي . أأطلع الرجل على حقيقة أمري ؟ أأقول له إنني لست أملك من هذه الدنيا ثلاثين درهماً ؟ أأنطق بهذا معتذراً فيحسبني كاذباً ؟

لقد عشت حياتى أطلب الستر ، وأخشى فضول الناس ، وكم كابدت فى إخفاء فقرى ، وكم عانيت من المشقة فى التجمل والتعفف ، ثم يجيء هذا الرجل يطلب ثلاثين درهماً فيفضحنى ؟ هذه ساقيتى لا تخرج ماء ، ولكنى حرصت على أن تبقى دائرة حتى لا يقال إننى وقفتها عجزاً . وهذه حديقتى لا تثمر ، ولا أرضى أن أبيع منها قيراطاً خوف أن يشمت الناس بى . كان يكفينى من ساقيتى نعيرها ويكفينى من حديقتى اتساعها طلباً للستر فى أعين الناس . فهل كان يجمل بى أن أعتذر للرجل عن ثلاثين درهماً فأطلعه بذلك على رقة حالى وقلة ذات يدى ؟ هذا محال . ثم كيف أتركه يطلق امرأته من أجل مبلغ زهيد ؟

فلا بد من الاحتيال فى الأمر وإن كلفنى شططاً . وأخذت أعد ما عندى من الأموال فلم أجد سوى الثور الذى يدور بساقيتى . فقلت فى نفسى « أبيعه يوم السوق وأقرض جارى من ثمنه ، فأبلغ عنده عذرى ، فإذا رد الدين لم أعدم ثوراً آخر أشتريه » . . . . . .

دارت كل هذه الأفكار فى رأسى وأنا مطرق صامت ، ووجه صديقى أبى النور يحمر حيناً ويصفر حيناً ، ووجهى يسخن ساعة ويبرد أخرى . ونظرت إلى عينى أبى النور فرأيت فيهما دمعتين حائرتين كأنه أدرك كل ما يجول فى نفسى . فمال إلى وقال هامساً :

ـــ ما كلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يسع المقل إلا الاعتذار .

فشجعنى قوله فنظرت إلى ضيفى وقلت مرتبكاً . ليس عندى الآن ما تطلب يا سيدى . فإذا كنت تنتظر على حتى أبيع هذا الثور يوم السوق . . .

فقاطعنى الحاج قائلا :

— ولكن فيم الانتظار إلى يوم السوق ؟ إن الثور الذى يباع فى السوق يمكن أن يباع لحماً فى البيت . فأنت تقدر على بيع لحمه أقة أقة ، ورطلا رطلا ، ثم تربح من بيعه ما كان يربحه التاجر .

فوقعت هذه الفكرة كأنها الصدمة على أم رأسى .

أثورى يباع لحماً ؟ أيذبح هذا الثور فى بيتى وأرى الدم يجرى من عنقه ؟ أأراه على الأرض يتخبط ويفحصها بحوافره ؟ لقد بقى عندى تلك السنين كلها يدور بساقيتى ويشق؛ ليطربنى بنعيرها فى ليالى القمر الساكنة . وأنا لا أقوى على أن أرى فرخة تذبح وكنت دائماً أتعمد أن أنام يوم عيد الأضحى حتى تذبح شاة الضحية وتسلخ وتجهز للأكل . فكيف أقوى على أن أرى هذا الهيكل الضخم يخر كما يخر الجبل وينحر أمام عينى ؟

لقد كان خادماً مخلصاً وصديقاً قويًّا ؛ ولو رأيت أحداً يريد أن يؤذيه لوقفت أدافع عنه إذا لم يدافع هو عن نفسه بقرنيه . فقلت للرجل فى حزم : لا . لا . هذا لا يكون .

فقال الحاج فى إصرار :

— إذا كنت لا تحب أن يتدخل الجزار فى الأمر فإنى أقدر أن أذبح وأن أسلخ . وليس عليك إلا أن تأخذ اللحم وتبيعه . أين هذا الثور ؟

قال هذا ثم ذهب مسرعاً إلى مربط الثور فى جوار الساقية ، فنظرت إلى صديقى أستوحيه ماذا أفعل ، ولكن صديقى نظر إلى متعجباً وقال :

— أهكذا يكون الاقتراض ؟

فقمت حائراً لألحق بالرجل ، ولكن رجلى ما كادتا تحملانى ، وسار أبو النور إلى جانبي وقد أوذعت المفاجأة الحيرة فى قلبينا . فلما بلغنا مربط الثور رأينا عجباً . ولست أدرى كيف استطاع الرجل فى مثل هذه اللحظات أن يتم كل هذا . كان الثور يتخبط على الأرض فى دمه . فغطيت وجهى بيدى وخرجت مسرعاً ولم تسعفنى الدموع ، فوقفت جامداً ، وجاء أبو النور فوقف إلى جانبى .

ولما سكن الثور المسكين صاح الحاج فى وقاحة :

ـ ابحث لى عن سكين صغيرة لأسلخ بها .

فلم أتحرك ولم يتحرك أبو النور وصاح الرجل مرة أخرى :

ـ هات السكين قبل أن يبرد الثور ويفسد الجلد .

فسمعت القول وخفت أن يبرد الثور . وأسرعت إلى البيت فأتيت له بسكين فألقيتها إليه من وراء الباب ، ووقفت مع صاحبى مطرقاً حزيناً .

واقترب أبو النور منى فوضع يده على كتفى وقال مواسياً :

ـ لا فائدة من هذا الوجوم . سأذهب إلى المدينة لأعلم الناس بلحم ثورك ليشتروا .

وبعد ساعة كان الحاج قد انتهى من سلخه وتقطيعه ، وجاء أبو النور مع جماعة من أهل ماهوش ، وسمعته يحدثهم ويراجعونه . وفهمت من حديثهم أنهم يخشون أن يكون الثور قد نحر لأنه كان مطعوناً أو مسلولا .

وحلف لهم أبو النور أنه كان سليما وأنه قد ذبح ليقترض الحاج جمال الدين من ثمن لحمه . ولكن الناس لم يصدقوه . وقال أحدهم :

ـــ ومن يدرينا أن ذلك الحاج قد قرأ اسم الله عليه ؟

وأضاف آخر :

ـــ وكيف نعرف إذا كانت السكين حادة كما ينبغي ؟

وقال ثالث :

ـــ إنها جرة ونصف جرة . هكذا ينبغي أن يكون الذبح الشرعي . أيعرف هذا الرجل كيف يذبح ؟

وقال صوت من أقصى الجمع :

ـــ ما علم ذلك الحاج بالذبح ؟ ألا يكون قد خنقه ؟

فسمع الحاج ذلك القول وصاح غاضباً :

ـــ ما أطول ألسنتكم أيها القوم . أجئتم لشراء لحم أم جئتم لإقامة الحساب ؟ انظروا إلى اللحم إن كانت لكم عيون !!

فغضب القوم وصاح بعضهم :

ـــ ما جئنا إلى هنا لنسمع هذا التقريع !!

وصاح آخرون :

ـــ إن النقود في جيوبنا .

ثم انصرفوا واحداً بعد واحد ولم ينفع في إرجاعهم توسل صديقي أبي النور .

ونظرت إليهم وهم يبعدون وقلبي يكاد ينفجر . فماذا أصنع بهذا اللحم كله ؟ ومن لي بمن يحمله وهو كالتل العظيم ؟ وهل كنت لأتركه حيث هو لينتن ويتعفن ؟ فما رأيت الناس يبلغون جانب السور حتى صحت بهم :

ـ هلموا أيها الإخوان عودوا كراماً . تعالوا فخذوا اللحم ولا أريد له ثمناً .

فترددوا فى السير قليلا ثم وقفوا ينظر بعضهم إلى بعض لحظة ، ثم انقلب تيارهم عائداً ، وأسرعوا حتى بلغوا مصرع الثور وهم يركضون . وجعل كل منهم يحمل ما يستطيع حمله حتى تخطفوا اللحم فلم يبق منه إلا فخذ واحدة كان الحاج واقفاً إلى جوارها يمنعها . ونظر الحاج إلى فى غضب قائلا :

ـ أهكذا لا تبيع شيئاً ؟ أهكذا تضيع على الدراهم ويذهب كل جهدى سدى ؟ ثم أخذ الفخذ فحملها على كتفه اليسرى ، وجر جلد الثور بيمناه ووضع سكيناً تحت إبطه والأخرى فى فمه ، ثم مضى خارجاً .

فسار أبو النور وراءه ونزع جلد الثور منه وقال فى حنق :

ـ جحا أولى بجلد ثوره .

فنظر الحاج إليه فى غيظ ، ثم ترك الجلد وأخذ السكين من فمه ، ومضى يهز بها يمينه .

فصحت به متوسلا فى غيظ :

ـ دع السكين فإنها لامرأتى .

فرماها إلى الأرض ، ومضى بغير أن يلتفت نحوى ، حتى خرج وهو يدمدم ويبرطم .

ونظر أبو النور إلى وهو يرفع جلد الثور وقال بصوت مختنق :

ـ صديقى . . .

فنظرت إليه وقلت فى حزن :

ــ أبا النور . . .

وسرت وهو إلى جانبى يجر الجلد ، حتّى بلغنا مربط الثور ، فوجدنا به فوضى تشبه آثار موقعة فى حرب ضروس . وجدنا رأس الثور المسكين والأكارع والفرث والمصران وكومة من الأوساخ ، جعلت الهواء عفناً يكاد يخنق الأنفاس . فرمى صديقى الجلد إلى ناحية ، وأخذ يرفع الحطام ويكنس الأقذار . وأسرعت أساعده حتّى مضت ساعة ، وكلت منا الأيدى ، وتألمت فقرات الظهر من الانحناء . فرفعت رأسى لأستريح ، ورفع صديقى رأسه كذلك ، وتقابلت نظراتنا ، ووقفنا حيناً ينظر كل منا فى وجه صاحبه صامتاً . ثم انفجرت بيننا ضحكة فى وقت واحد ، فى لحظة واحدة كأنها ضحكة شخص واحد . وامتدت الضحكة وطالت حتّى كدنا نقع على الأرض من الإعياء ، وجعل كل منا يضرب بيده على ركبته .

لقد كانت فكاهة عظمى .

٧

ما أشد ضيقى بالحياة فى ماهوش وطنى ! فإنى لم أجد حولى فيه إلا جشعاً وظلماً . ولكنى أرحم هؤلاء الذين يظلموننى فإنهم جديرون بالرثاء . وأى قيمة للحياة إذا هى خلت من الكرم والإيثار والمحبة والصدق إن الذين يفقدون هذه الخلال لا تبقى لهم فى الحياة فضيلة تستحق الحياة . ولكنى مع هذا قد كدت أضيق بالحياة فى ماهوش .

وحاولت أن أعتزل الناس قانعاً بالصورة التى أسمو معها إلى السماء فى خيالى ، فكنت كل يوم أخرج إلى الحقول حتى أصل إلى شجرة الجميز ، فأصعد فوقها وأختبئ بين فروعها حتى لا يرانى الناس وأنجو من فضولهم . فكنت أقضى هناك الأيام أو الليالى خالياً إلى نفسى ، أطلع على الناس بغير أن يرونى ، وأخلو هناك إلى طيف علية ابنة علاء الدين فأناجيه وأحدثه بالمعانى التى لا أجد فى الأحياء من يفهمها . ولكنى بعد حين ضقت بمجلسى فوق الشجرة لأنه ملأ صدرى بعيوب غيرى . إذ كنت أرى الناس يمرون تحتى وهم لا يفطنون إلى وجودى ، فيظهرون ما يبالغون فى إخفائه عن العيون ولا يتحرجون من كشف خلجات الضمائر . وقد خرجت من كل ما رأيته وأنا فوق الشجرة على حقيقة واحدة ، هى أن الإنسان جدير بالرثاء، وليس فى ذنوب الناس ما يستحق العقاب .

لقد بدا لى وأنا فوق الشجرة أن الله خالق هذه الأكوان العظيمة لن يضيق بالعفو ولن يكبر على رحمته ذنب . فلما لم يجدنى اعتزالى فوق

الشجرة ، حاولت الاعتزال فى الفلوات فكنت أخرج إلى تلال ماهوش أشرف منها على واديها ، فأراه خطاً أغبر ضئيلا تحت قدمى ، ويخيل إلى أن الأنفاس تضيق فيه من الضباب الذى يجثم عليه . فإذا وقفت حيناً أنظر إلى ماهوش من فوق التلال لاحت لى صغيرة تافهة ، بكل ما فيها من نضال وضجيج . ولكنى مع ذلك كنت أعود إليها وأحس أنى لا أستطيع الاستغناء عنها . فإذا حاولت أن أجد لى موضعاً فيها لم أعد إلا بالخيبة ، فأرتد إلى عزلتى وتأملى . ولو كنت فى غنى عن الطعام والملبس ، أو لو كان أهلى وولدى فى غنى عما يحتاج إليه أمثالهم ، لما برح بى الضيق من حياتى فى ماهوش وطنى ؛ ولكنى بشر كسائر الناس وأهلى وولدى لا غنى لهم عن أن يصيبوا من الحياة نصيباً . فكيف أجد ذلك النصيب وقد بحثت عنه فى كل أركان ماهوش فلم أجد لى فيها مكاناً .

ولقد أبى لى حيائى أن أشكو إلى الناس ، فلست أحب أن أحمل أحداً ثقل همى . ولولا كلمة أقولها لصديقى أبى النور لأنفس بها عن صدرى لزاد الأمر على طاقتى . وقد أشار ذلك الصديق علىّ أن أذهب إلى القاضى وهو صديق كان لأبى ، لعلى إذا شكوت إليه حالى ساعدنى على أن أجد عملا ألتمس منه القوت لنفسى وأهلى . فترددت طويلا ولكن الحاجة كانت تدفعنى . وغرتنى من القاضى كلمات كان يقولها لى إذا لقينى ، فذهبت إليه على استحياء وسألته مساعدتى . ولكنه نظر إلى نظرة فيها دهش وعجب ، ولم يجبنى بحرف على مقالى . وتشاغل عنى ببعض أمره حيناً ، ثم التفت إلى وقال « إن الأرزاق موفورة لمن أقبل على

التماسها » ثم أضاف سائلا :

ـ لم لا تشتغل بالتجارة يا جحا ؟

ولو كان عندى مال لما انتظرت حتى يقترح على السيد القاضى . فإنى لا أملك من الدنيا ما أعيش به يوماً بعد يوم . ولو كان عندى رأس المال لما احتجت إلى أن أكون تاجراً . فسكت حيناً وأنا مطرق ، فأعاد القاضى سؤاله كأنه يريد ألا أنصرف عنه حتى يفتح لى متجراً .

ياللنفاق والرياء ! لقد كان فى يده أن يجعلنى محتسباً أو مأذوناً ، ولو كان جادّاً فى عنايته بأمرى لما رد على سؤالى بسؤال ، ولما حملنى مؤونة الاعتذار . فلما لم أجد عند القاضى جواباً لم أجد حاجة إلى أن أجيب عن سؤاله . وانطلقت منى آهة ثم أعقبتها كلمة « يا ألله » ، ثم مضيت عنه .

فقام مسرعاً يشتد فى أثرى ، حتى أدركنى ودس فى يدى أربعين درهماً وقال لى :

ـ أحب أن تبدأ تجارتك ، فاشتر لى بهذه عشرين وزة لطعام ضيوفى .

ولم أكن عند ذلك فارغ البال ، فأناقشه أو أجادله ، فوضعت الدراهم فى جيبى ثم مضيت عنه صامتاً . وجعلت أعيد سؤاله على نفسى :

ـ لم لا تشتغل بالتجارة يا جحا ؟

ولقد كانت التجارة مهنة الكرام ، وكان من أجدادى من اشتغلوا بالتجارة . وكان النبى عليه الصلاة والسلام تاجراً ، وكان أبو بكر وعثمان تاجرين فلم لا أكون مثلهم تاجراً ؟

ولكن التجارة تحتاج إلى المال ، ولست أدرى أيقيض الله لى كنزاً أم يجعل لى فى طريقى لقى من ذهب أو جوهر ؟ والتجارة فوق هذا تحتاج إلى ولوج الأسواق ومعاملة السوقة ، فهل أستطيع أن أكون تاجراً ؟

ولكنى عدت إلى نفسى قائلا :

— مالى أضعف عن الحياة ، وإذا عدت منها بالخيبة التمست الأعذار لنفسى ؟

وعزمت على أن أخوض زحمة الناس وأن أضرب فى الحياة كما يضربون . فما عدت إلى منزلى حتى كنت قد استقر عزمى . ونظرت حولى وجعلت أقلب وجوه الرأى وألتمس الحيلة فى تحصيل رأس المال ، حتى عزمت على بيع دارى ليكون ثمنها رأس مالى .

وهكذا بعت البيت القديم الذى خلفه لى الأجداد ، والذى يحمل فى كل ركن من أركانه ألوفاً من الذكريات . وكان بيع ذلك البيت صدمة كادت نفسى تتصدع منها . فوقفت عند كل جذع فى الحديقة الجرداء ، ووقفت عند الساقية المتهدمة التى لا تخرج الماء ، وذكرت ثورى المسكين الذى ودّره جارى جمال الدين سامحه الله . وسرت حوله أذرف الدموع الغزار أسفاً وحزناً ، فوقفت عند كل لبنة من لبنات السور المتهدم الذى لا يبلغ علوه ذراعاً ، وجعلت أناجى حيطانه ، وأندب لها اضطرارى لفراقها ، ولم يفارقنى الشعور بأننى أنا الذى جعل الدهر من محنته أن يبيع هذا التراث العزيز .

ثم جمعت كل متاعى وانتقلت إلى دار أخرى فى زقاق ضيق ونزلت

إلى ميدان العمل كما ينزل الناس فى التماس الأرزاق .

وكانت كلمات القاضى ترن فى أذنى كل صباح ، إذ قال لى يوم لقيته « إن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها » .

وذهبت إلى السوق لأنظر فى السلع وأختار من بينها ما يصلح لأن أتخذه متجراً . وبعد تفكير وتردد اخترت أن أتجر فى الطنافس ، فهى نظيفة لا يأنف الحس منها ، وهى جميلة يرتاح الذوق إليها ، ولا يتعفف عنها أصحاب المروءة ، ولا يشتريها إلا العظماء .

ولما استقر رأيى على هذه النية ذهبت إلى متجر عظيم لأشترى منها ، فرأيت به مجموعة من تلك التحف الثمينة التى لا تصنع إلا فى مدينة تبريز . فراعنى جمالها وعللت نفسى بالكسب الهين والثروة الطائلة . ووقفت أتأملها وكانت عينى لم تقع على مثلها فى البهاء . كانت نقوشها كأنها خلست من زهر الربيع وكانت ألوانها كأنها استمدت من أشعة الأصيل على أردان السحاب .

فوقفت حيالها مأخوذاً لا أقدر أن أرد عينى عنها ، وأجلت ناظرى فى محاسنها فتأملت فيها زهرة بعد زهرة ، وقوساً بعد قوس . وضرب بى الخيال إلى بلاد إيران وخيل إلى أنى أرى أنامل الفتيات وهن يعقدن عقدها ، وكلما أتممن منها ورقة من زهرة ، أو قضيباً من غصن ، امتلأت قلوبهن إعجاباً وزهواً ، وفاضت نفوسهن تيهاً وعجباً . وتصورتهن يقفن دون الأنوال يتأملنها عن بعد ويملن رؤوسهن يمنة ويسرة ، لكى يتملين بحسنها . تصورت هاتيك الفتيات وهن عاكفات على الطنافس يعقدن فيها العقدة بعد

الأخرى ، يتهاتفن بالضحكات ويتشاورن بالهمسات ويتحدثن عن أحلامهن بنفوس جائشات . ثم تصورت إحداهن وقد بدا لها من وراء النافذة شخص ، فتركت العقدة وأسرعت إلى النافذة ، تنظر من وراء « الشباك » ، فتدس عينها فى فرجاته الضيقة بين مخروطاتها الدقيقة لكى تتزود من حبيبها بنظرة تظل لقلبها فى الليل زاداً حتى يطلع الصباح . فإذا ما مر الشخص عادت الفتاة إلى الطنفسة تعقد فيها العقدة بعد الأخرى ، بأنامل مضطربة ، ولكن تلك الأنامل كانت تصور الزهرة الساحرة التى كنت أراها أمام عينى ، رائعة الألوان حلوة المنظر منسجمة الأشكال . كنت أتصور هذا وأنا واقف أنظر إلى الطنافس ، وقلت لنفسى ما هذه إلا خطرات نفوس وأشجان قلوب ، وما يغلو على مثلها ثمن وإن غلا.

وذهبت إلى التاجر لأساومه فى شرائها ، فوجدته حريصاً عليها ، ولا عجب فهى جديرة أن يحرص عليها كل من يعرف لها قدرها . فزدته فى ثمنها ولم أتردد فى أن أبذل له ما يطمعه فى بيعها . وبعد لأى سمح التاجر فدفعها إلى ، ووزنت له ثمنها ثلثمائة دينار كاملة . وحملتها وسرت بها وأنا أكاد أطير فرحاً ، فقد خيل إلى أنى فزت من الرجل بصفقة الخبير ذى القلب البصير .

ولكن ماذا وجدت من الناس ؟ ذهبت أعرض الطنافس على خيار القوم ، فعرضتها على القاضى فلم يكن فى حاجة إليها ، وعلى المحتسب فقال إنه اشترى بالأمس منها ، وهكذا لم أجد فى كل من عرضتها عليهم رجلا يستطيع أن يدرك أسرار جمالها . ثم عرضتها على الناس فى الأسواق

فكانوا يقومون إليها يقيسونها بالذراع ، ويجسونها بالأيدى ويزنونها بالميزان ؛ كأنما هى سلع مبتذلة ، وليست من حرارة الأرواح ونشوة الأمانى . وكانوا مع ذلك إذا اشتروها لم يعرضوا إلا البخس من الأثمان . وهكذا خرجت من تجارة الطنافس بخسارة نصف مالى . ولكنى لم أجزع ولم أضعف ، وعزمت على أن أختار تجارة أخرى تكون فى سلعة مما يحتاج الناس إليه ولا يمكنهم أن يستغنوا عنه ، فإن العظماء قليلون ، وقد فسد الزمان وضاعت بين الناس قيم الفنون . وأما عامة الناس فلا يحصيهم العد والبيع والشراء فيهم لا يحده حد .

وبعد تفكير واجتهاد عزمت على أن أتجر فى الأغنام . فليس فيها قطعة واحدة لا يحتاج الناس إليها . فشعرها صوف وجلدها نعال ولحمها طعام وفروتها حلية ، وهى بعد ذلك كله جميلة المنظر حلوة الطباع . ولقد كنت دائماً أحبها وأطعم ما أقتنيه منها بيدى ، وأداعبه كما أداعب ولدى . ولقد أبدع الله خلقتها فما ترى فيها من عيب ، سبحان من جلت قدرته وعظمت حكمته وبدعت صنعته . ولكن كل هذا لم يجعل تجارة الأغنام رابحة . فقد كنت أشتريها وأنا راض بثمنها . كنت أعطى الدنانير المعدنية ثمناً لخلقة حية . كنت أعطى صاحب الشاة حجراً أصم ، وآخذ منه حياة بديعة الخلق . ولكن الناس إذا أتوا لشرائها منى لم ينظروا إليها بعينى . فكانوا يدفعونها فى غلظة ويجسونها فى شراهة . كان لعابهم يسيل وهم يقلبونها بأيديهم كأنهم سباع تتأمل الفريسة . فإذا اشتروها لم يشتروها إلا بعد مماكسة ومراجعة ومساومة فيها لجاجة وجشع .

وهكذا لم أخرج من تجارة الأغنام إلا بخسارة نصف ما بقى من مالى .

هكذا استمر بى الحال وأنا أتنقل من تجارة إلى تجارة ، ومن سلعة إلى سلعة ، وكل منها يقتطع نصف ما بقى عندى ، حتى لم يبق لى إلا دراهم معدودة ، فلم أجد شيئاً أشتريه إلا بيض الدجاج .

وفى الحق أن البيض سلعة نظيفة جميلة الصورة بيضاء اللون لها هندسة عجيبة فى شكلها ، ورونق رائع فى جملتها . ليس فى الأشياء ما يدخل الفرح على القلب مثل البيضة إذا وجدتها فى ركن بيت الدجاجة ، كأنها عند ذلك كنز من الجوهر .

ولكن البيض لم يكن خيراً من كل ما سبقه . فقد كنت أشترى التسع منها بدرهم — بدرهم واحد . وكانت كل بيضة منها عندى أثمن من كل ما عندى من الدراهم . ولكن الناس كانوا إذا أتوا للشراء لم يدركوا ما فى البيض من جلال الخلقة وجمال الصورة وإبداع الهندسة ، بل ينظرون إليه فى الضوء وينقدونه نقد الصيرفى للدينار ، كأنه شىء لا تتجلى فيه قدرة الخالق المبدع الذى برأ الأكوان . فكان الأمر ينتهى بى دائماً إلى أن أبيع العشرة منه بالدرهم الواحد ، حتى ابتلع السوق كل ما بقى من دراهمى .

وأنا اليوم أتلفت حولى فلا أجد إلا يداً فارغة ، وبيتاً خاوياً ، ولا أزال أنتظر الفرج ولا يزال عنى متباعداً .

أى رب ، هذا أنا ضربت فى الأسواق ولم أعص مشورة القاضى . لم أقعد ولم أتخاذل . ولكنى هذا عبدك لا أملك مالا ولا أجد رزقاً كأنما كنت فى غيبة عند توزيع الأقسام . أستغفر الله من قولى ، أستغفرك يا من وسع عفوك الآثام .

لقد كاد الشك يداخلنى ، فلأعد إلى صورة الحبيبة التى أسمو معها إلى السماء لعلى أكفر هناك عن خطئ فى التسبيح العلوى والترتيل .

٨

ماذا أصنع لكي أعيش في ماهوش ؟ لقد زعم القاضي حرسه الله أن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها . ولكني سعيت وسعيت وسعيت ولم أجد لي نصيباً .

ذهبت اليوم مرة أخرى إلى الشيخ عماد الدين الفقيه لأحاول أن أذكره بديني عليه . ولكني علمت أنه عند القاضي . فقلت هذه فرصة ، وذهبت إليه في حضرة القاضي أعزه الله ، فوجدته على عهده لا يزال يهز لحيته ، والناس يقبلون يده التماساً للبركة ، فدخلت وسلمت وخطر لي أن أذهب إليه وأقبل يده مع الناس ، لعله يذكر ديني عليه . ولكني ما كدت أقف أمامه وأراه يصرف وجهه عني حتى وجدت نفسي أقول له :

ــ ألا تعرفني يا سيدي الشيخ ؟

فنظر إلي وجعل يحرك شفتيه كأنه مشغول بالقراءة . ثم حرك لحيته حركة لم أفهم معناها . ولكن القاضي ناداني وجعل يحدثني ويسألني عن أحوالي . وسألني كذلك عن الوزات التي طلب مني أن أبتاعها له منذ أشهر ، فذكرت عند ذلك أنني مدين له بثمن تلك الوزات ، وعلاني خجل شديد . وهكذا ذهبت أطلب ديني فوجدت نفسي مديناً مطالباً .

وملت على القاضي فأسررت إليه أنني قد جئت أطلب ديناً لي على صاحبه الفقيه . فهمس في أذني :

ــ ما ينبغي لك أن تطالبه في داري .

فخرجت مرتبكاً بعد أن سلمت ، ولمحت الشيخ الفقيه يشيعنى بلمعة شماتة من عينيه وهزة سخرية من لحيته .

وسرت أفكر ماذا عساى أن أصنع فى ماهوش لكى أجد فيها رزقى . لكأنى بذلك الرزق كامن فى قلب صخرة من دونها بحر من دونه صحراء قاطعة . أو كأنه فى كهف مغلق عليه باب من حديد ليس فيه إلا ثقب إبرة أحاول أن أنظر إليه من خلالها . على حين أرى ماهوش سخية ليس بها بخل غنية ليس بها فقر مسرفة ليس فيها اقتصاد .

هنا فى ماهوش راقصة ليس عليها إلا أن تحرك خصرها فتنهال عليها الدنانير من كل صوب ، وهناك مغنية او طلبت على أغانيها نصف ثروة ماهوش لسخا أهلها بالنصف الآخر طرباً . ألا أستطيع أن أجد لنفسى سلعة نافقة فى ماهوش ؟ لو كان خصرى نحيلا ليناً لاستطعت الرقص ، ولو كان غنائى مطرباً لعرضت على قومى الغناء . ولكن ما حيلتى إذا كان خصرى غليظاً جامداً ، وكان صوتى لا يطرب أحداً . لقد دخلت الحمام يوماً فخطر لى أن أجرب صوتى فى أغنية لعلى أجيدها فأنال منها خيراً . وأنا أعرف أن أهل ماهوش يحبون الغناء ويطربون له ، فهم يتغنون فى كل وقت وكل مكان . هم إذا حزنوا غنوا وإذا فرحوا غنوا وإذا باعوا أو اشتروا غنوا . كل من أراد أن يعرض سلعة جعل عرضها غناء ، وكل من أراد نداء جعل نداءه غناء . وسمعت صوتى فى الحمام فوجدته مطرباً ، فدب الأمل فى قلبى وقلت هذه سلعة نافقة . وخرجت إلى الطريق وأنا أغنى ، فاجتمع على الناس وجعلوا يضحكون منى . فدعوتهم

أن يعودوا معى إلى الحمام لعل صوتى فيه يطربهم ، ولكنهم زادوا ضحكاً ولم أصب منهم درهماً. فما حيلتى إذا كان أهل ماهوش لا يرضيهم شىء منى ؟

ولما بلغت الدار جلست مهموماً حتى جاء صاحبى أبو النور ، وما كاد يسلم على حتى سألنى :

– أين كنت اليوم يا صديقى ؟

فقصصت عليه ما كان منى . يا له من صديق نبيل ! لقد رأيته يمسح دمعة فى عينه، ولا أدرى أكان ذلك إشفاقاً على أم كان كما قال لوجع فى عينه . ولما فرغت من قصتى قال لى :

– إن عندى سرباً من الوز لا أجد حاجة إليه ، فخذ منه عشرين وزة فاحملها إلى القاضى .

فقلت له :

– ولكنك تستطيع بيعها .

فقال فى شىء من العتب .

– لست أبيع وزى فى الأسواق يا صديقى . وهى تكلفنى فى إطعامها ما لا طاقة لى به . فإذا أخذت منها ما تريد أحسنت إلى .

وهكذا صرت عنده متفضلا بأن آخذ من وزاته ما أرد به دينى إلى القاضى . ولم يرض أن يتركنى حتى أخذت عشرين وزة سمينة ، نسوقها إلى بيت القاضى .

وسرت فى الطريق أفكر فى تلك الحكم التى نطق بها القاضى إذ قال لى إن الرزق مكفول لمن التمسه . وأردت أن أداعبه مداعبة خفيفة تطلعه

على شيء مما دار فى قلبى . فلما بلغت داره أخذت وزة سمينة وجعلتها وراء الباب ، وسقت تسع عشرة وزة إلى فناء الدار . وكان القاضى هناك فى مجلسه بعد أن فرغ من صلاة العصر . فلما رآنى مقبلا قام يستقبلنى قائلا :

— ما أعظمه من وز سمين ! إنك لتحسن الشراء يا جحا ، ولن أشترى الوز بعد هذا إلا من عندك .

ثم أقبل على الوز يعده واحدة بعد واحدة ، فلما وجدها تسع عشرة قال ممتعضاً :

— ولكنها تنقص واحدة . وما كنت لأقبل إلا عشرين كاملة . هكذا كان شرائى وهكذا كان شرطى . لست أحب أن تنقصنى وزة وقد أخذت ثمنها .

فغاظنى قوله غيظاً شديداً فإنه لم يعطنى إلا أربعين درهماً والوزة من هذه السمان لا تساوى أقل من أربعة دراهم . ولكنى كظمت غيظى وقلت له :

أما تعرف العدد يا سيدى القاضى ؟

فعدها مرة ثانية ثم ثالثة وقال فى حنق :

— قلت لك إنها تسع عشرة .

فقلت له فى عناد :

— بل هى عشرون . تكفى عشرين من رجالك .

فقال لى : أما تعدها ؟

فقلت : إن الوز يتحرك ويدخل بعضه فى بعض فكيف أعده ؟

فغضب من مراجعتى ودعا أعوانه فوقفوا حوله حلقة غاضبة . وكأن كلا منهم ينتظر أمره أن يبطحنى على الأرض ليجلدنى جزاء مراجعتى .

فقال لى القاضى :

— عد عشرين من هؤلاء يا جحا .

فعددت عشرين وقفوا صفاً واحداً ينتظرون أمر القاضى .

فصاح بهم السيد :

— ليذهب كل منكم ليأخذ فى يده وزة .

فحملوا على الوز فأخذ كل منهم واحدة تحت إبطه إلا واحداً منهم وقف فارغ اليد ينظر نحوى حانقاً .

فقال القاضى وعلى وجهه بسمة الفوز :

— ألا ترى أنها تسع عشرة وزة ؟ ألا ترى هذا الرجل الذى لم يجد نصيباً ؟

فتذكرت ما قاله لى من قبل إذ قال إن الأرزاق موفورة لكل من أقبل على التماسها ، فضحكت ضحكة عالية حتى رأيت وجه القاضى يحمر خجلا . وقال ممتعضاً : ماذا يضحكك من قولى ؟

فقلت :

— إن الذنب ذنب هذا الذى لم يجد لنفسه نصيباً ، فقد كانت الوزات أمامه إذا أقبل على التماسها .

فضحك القاضى ضحكاً شديداً ولست أدرى إذا كان قد فهم مقصدى ، ولكنه دعانى إليه فوضع ذراعه فى ذراعى وذهب بى إلى مجلسه

وقضينا معاً ساعة يسألني عن أحوالى ، وأقص عليه ما كان منى منذ سمعت نصيحته ، فبعت داري واشتغلت تاجراً حتى أكلت ثمنه تجارتى . وكان يضحك من وصفى كأننى كنت ألقى عليه فكاهة مع أن قلبى كان يدمى .

ولما سلمت عليه لأنصرف قال لى :

ــ لا بأس عليك يا جحا ، فإنك على كل حال تحسن تجارة الوز ، فهات لى عشرين وزة أخرى ، ثم أخرج لى أربعين درهماً .

فنظرت إليه وهو يمد يده نحوى ثم غلبنى الضحك فضحكت وضحكت حتى كدت أقع متهالكاً ، وتركته مادًّا يده نحوى وانصرفت عنه ضاحكاً .

فلما بلغت باب داره أخذت الوزة التى تركتها هناك فحملتها إلى بيتى تحت إبطى فأبنائى أولى بها من ذلك القاضى .

٩

مضت أيام لم أر فيها صديقى أبا النور ، وضاق صدرى من الوحشة إليه ، فإنه لم يبق فى الحياة من سلوى إلا أن أجلس معه وأفضى إليه بأحزان قلبى .

وقد زادنى فى هذه الأيام حزناً ما لقيته من حمق ريمة وسوء عشرتها . فهى لا تجعل يوماً يمر بى بغير أن تزيدنى وسواساً وهمًّا ، حتى تخيل إلى أن الفضاء أضيق فى وجهى من حجرة فى بيتى . أف لحجرات بيتى ! إن سقفها يكاد ينطبق على الأرض فلا أستطيع البقاء فيها وأخرج منها لا ألوى على شىء ، وألتمس الهواء الطلق فى أطراف ماهوش ، فتطاردنى أشباح البؤس تصيح من ورائى بصوت ريمة زوجتى .

فكنت كلما وجدت جنازة سرت وراء النعش لأشيعها إلى القبور ، وأبقى حتى يدفن الميت وتقرأ عند جدثه الصلوات ، ويوجه إلى أهله العزاء ، فأود لو طال بقائى عند القبر فإنى أجد عنده ارتياحاً . وقد سار ولدى عجيب معى يوماً مع إحدى هذه الجنائز ، فلما دفن الميت قام بعض أصحابه يؤبنونه فقال أحدهم فى رثائه :

« أنت هذا نحملك إلى مقرك الموحش ، الذى لا ترى فيه شمساً ولا قمراً ، ولا يطالعك فيه نجم ولا يهب عليك نسيم . أنت هذا فى مقرك المظلم لا تنفذ إليك الأضواء ولا تؤنسك سجعات الأطيار » .

وجعل ذلك الرجل يفيض فى وصف القبر ووحشته ، وظلمته وضيقه ، حتى انهلت العبرات من المعزين وشهقوا جميعاً بالبكاء . وعند ذلك شعرت

بوخزة فى جنبى ، فإذا ولدى يلكزنى بكوعه ويشير إلى أن أدنو منه بأذنى . وقال لى هامساً :

ــ أقرأت قصيدتى التى وصفت بها بيتنا الجديد ؟

وكان قد أطلعنى على قصيدة يصف فيها ذلك البيت ، فكأنه قد أملاها على ذلك الرجل الذى وقف يؤبن الميت ويصف قبره ووحشته وظلمته .

فثارت نفسى عند ذلك ، وتذكرت كل بؤسى ، وقمت بغير أن أستأذن أو أعزى ، وهمت على وجهى بين القبور وولدى يسير صامتاً فى أثرى ، حتّى بلغت المدينة ولم ألتفت ورائى .

وكنت فى سيرى هائماً فى أحزانى ، أشعر بالخزى مما جررته على أهلى وولدى من الشقاء . إن ماهوش قد أنكرتنى ولم تجعل لى فى أرزاقها نصيباً ولا بين أهلها مكاناً ، واضطرتنى إلى بيع دار أجدادى ، ولم تجعل لى فى بيوتها إلا ذلك القبر الذى نقيم فيه أحياء . ولكن أينا المذنب أأنا أم ماهوش ؟ أى وطنى العزيز أينا الذى يقع عليه ذنب حرمانى وطردى وإقتار رزقى أأنا أم أنت ؟ أتتركنى ماهوش أهلك أنا وأهلى ؟ أيقال عن ماهوش فى مستقبل أيامها إن جحا وأهله ماتوا بها جوعاً ودفنوا بها أحياء ؟ ولما قربت من دارى رأيت عن بعد صديقى أبا النور يطرق الباب وهو يحمل شيئاً على ظهره وشيئاً فى يده . ثم فتح له الباب فدخل . وأسرعت حتّى بلغت الدار فوجدته قد وضع حمله ، وكان كيلة من القمح وقطعة من اللحم ، وأخرج من جيبه رمانتين وجلس يمسح العرق عن جبينه .

فلما رأيت ذلك كبر على نفسى . أيحمل أبو النور كل هذا إلى وهو رجل رقيق الحال لا يكاد يستطيع أن يعيش مستوراً ؟ وتجرأت فكلمته فى هذا، وما كدت أخرج صوتى حتى خرجت على ريمة كأنها نمرة تنطلق من عرينها . وقالت بصوتها الجهورى :

ــ آكنت تريد أن نموت جوعاً ؟ ألا فاعلم أيها الرجل أنه لولا هداياه فى هذين الأسبوعين لهلكنا كلنا جوعاً .

ولم أدرك إلا عند ذلك حقيقة قولها . لقد مضى على أسبوعان حقاً لم أجد فى جيبى درهماً ولم أعط امرأتى دانقاً . فكيف كنا نأكل وم كنا ننفق ؟

ولا أستطيع أن أبين مقدار ألمى عندما تبينت هذه الحقيقة الطاحنة . لقد انحدرت وهويت وصرت حملا على صديقى .

وخرجت من الدار أسير كالأعمى والثورة تملأ جوانحى . لئن كانت ماهوش لا تفسح لى مكاناً فيها فإنى لن أحمل صديقى وحده مؤونتى . إن لى حقاً على ماهوش فأنا جحاها . أنا الذى إذا ذكرت ماهوش قال عنها الناس إنها وطنى . أنا الذى يبعث الملوك إلى لكى أسير إليهم فآبى . أنا الذى يطلبونه لكى يسامرهم ويعلمهم كما يقولون الحكمة فيأبى إلا أن يعيش بين قومه الذين ينكرونه . أنا الذى أتنفس فى حماقات ماهوش بضحكى وأهدهد من سخافاتها بعفوى وأستقبل السماء فى الصباح والمساء من أجلها بدعائى . فلآخذن من ماهوش حقى وإن أبت أن تبذل لى حقى .

ولما صرت بين الحقول تلفت حولى فلم أجد سوى بساتين فسيحة تمتد

إلى مدى البصر عن يميني وشمالى ، فيها من كل فاكهة ومن كل بقلة . فعزمت على السرقة عمداً . فليقل الناس ما يقولون فلست أسميها سرقة . فأنا لا آخذ إلا رزقى . أنا جحا ، وما ينبغى لها أن تنسانى . وقفزت فوق السور وجعلت أقطف وأقطع وأخلع فى شىء من الحنق . ولست أنكر أننى مع كل حنقى لم أخل من خوف أن يرانى الناس فيقولوا إننى أسرق . ونزعت شملة كانت على فجعلت فيها الفاكهة والبقل وجعلتها صرة كبيرة . ولما عزمت على حملها شعرت بوخزة فى قلبى ، ألست سارقاً ؟ ألم أدخل البستان خفية أتلفت لا يرانى صاحبه ؟ وفيما كنت أفكر مضطرباً مرتبكاً شعرت بيد على كتفى وسمعت صاحب البستان يقول :

— ما هذا يا جحا ؟

ففزعت ولكنى تماسكت وفكرت مليا وقلت فى نفسى إنها عاصفة هوجاء . ألم تكن ثورة نفسى كالعاصفة ؟

وأجبت الرجل بغير وعى : هى عاصفة هوجاء حملتنى فوق السور قسراً . فتضاحك الرجل خبثاً كأننى كنت أمازحه ثم قال :

— وأين تلك العاصفة ؟ فالجو صاف والشمس تبسم فى وداعة .

فقلت فى مرارة : إنك لا تعرفها . إنها عاصفة لا يحسها أمثالك .

فضحك الرجل وكأنه ظن بى تخليطاً ثم قال :

— آمنا يا سيدى جحا . هى العاصفة قد حملتك ، ولكن ما الذى قلع هذا وقطع هذا وقطف ذاك ؟ وجعل يشير إلى ما فى صرتى .

فقلت مبادراً :

ــ دفعتني العاصفة فكلما تشبثت بشيء خرج في يدى .

فضحك الرجل مرة أخرى . ثم قال :

ــ آمنا بهذا أيضاً . ولكن ما الذى وضع كل هذا فى شملتك ؟

فلم أجد للرجل جواباً . فقلت فى صراحة :

ــ أما هذا فقد فاجأتنى قبل أن أفكر فيه .

فانفجر الرجل بالضحك انفجاراً عجيباً حتى كاد يقع على الأرض، ثم أقبل نحوى فحمل الشملة بيديه وألقاها على كتفى قائلا :

ــ بارك الله لك فيها يا جحا، وحاذر أن تطيرها العاصفة عن كاهلك .

ثم فتح لى باب البستان فخرجت منه مغتبطاً حزيناً .

ولما عدت إلى بيتى وجدت أبا النور ما زال جالساً فى انتظارى ، فحدثته بأمرى . وقد لمحت الدمع ينحدر فوق خديه وهو قائم لينصرف عنى .

أى صديقى ، ليس فى طاقة إنسان أن يفعل ما فعلت .

إنك تواسينى بصمتك ودمعك خيراً مما واسيتنى بقمحك ولحمك . ولا أملك إلا أن أشكرك من قلب جريح .

١٠

لا تحمل الأنباء إلينا إلا كل منذر بكارثة . وهل عجب أن يرسل الله الكوارث على بلد مثل ماهوش ؟

خرج تيمور بجيوشه فاجتاح أقصى ريفها وأدناه، وخرج علاء الدين من خوفه يهرب فى البلاد طريداً ذليلا . ويلاه ! إن علاء الدين طريد بعد أن خرج من عاصمته وقصره . فأين أنت يا علية ابنة علاءالدين ؟ لقد أنسانى هم الحياة أن أخلو إلى خيالك وأسمو معه إلى سماوات العلا . فأين أنت فى مصاب ماهوش ؟ أبكت عيناك حزناً ؟ أعصر قلبك همًّا ؟ وهل امتلأ صدرك فزعاً ؟ أنظرت إليك العيون بغير ستر ، وتشتت عنك الحراس والحجاب ؟ ليتك لم تكونى سوى هذا الخيال الذى فى فؤادى فلا تصل إليك الأيدى ولا تدنو منك حوادث الدهر . لقد جنى عليك أنك فى ماهوش ، فكان لك مصير أهل ماهوش .

وكيف أقيم فى هذا البلد الذى لا مكان لى فيه إذا كان خلواً منك ؟ لقد كنت لا أرضى بماهوش بديلا وأنت فى ذرى قصرك . فما مقامى بأرض ماهوش وقد كنت فيها أتنسم النسيم من قبلك ؟ لقد أبيت الخروج من ماهوش على ظلمها حتى لا أبعد عن ديار يسطع نورك عليها ، وتنبعث أنفاس طهرك فوقها . لقد أبيت أن أجيب دعوة ملوك البلاد إذ دعونى إلى قصورهم ، وأصممت أذنى عن نداء العلماء فى أقاصى الأرض إذ نشدونى أن أعقد حلقات الدرس فى مساجدهم . ولكن أأبقى بعد فى

ماهوش وقد نزحت عنها وليس لى مكان فيها ؟

لقد دفعنى غيظى بالأمس إلى عمل ما زلت ألوم عليه نفسى . فما كدت أدخل إلى دارى بعد أن فارقنى أبو النور حتى عادت الثورة إلى قلبى . إن ماهوش تذلنى وتقهرنى وتتجاهل وجودى . إن عيونها العشواء لا تعرف لى مكانى . وخطر لى أن أموت لو كان الموت فى يدى . ثم تصورت نفسى ميتاً فى نعش يحملنى الناس إلى القبر ويهيلون على التراب ، ثم تصورت قومى بعد أن مت وأخليت مكانى بينهم فى ماهوش . ألا يهزهم فقدى ؟ ألا يشعرون بالوحشة من فراقى ؟ ألا يحسون الندم على إغفالى وإهمالى فى حياتى ؟

واستقر عزمى آخر الأمر على أن أموت . فصلبت أطرافى وقلت « أيها الموت أقبل » .

ولم يكن من الهين على أن أظهر الموت وأنا حى أتنفس ، ولكن الناس لا يقلبون الميت ولا يجرءون على جس أعضائه وتسمع ضربات قلبه . فالموت رهيب وللميت حرمة تجعل الناس يهابون الاقتراب منه . فلما جاءت امرأتى إلى حجرتى ورأتنى ممدداً نادتنى ولم يخل نداؤها من سبابى . فلم أجب على صراخها ولم أحرك شعرة من جفنى . فجاءت الحمقاء حتى اقتربت منى ونخزت صدرى . فلما لم أتحرك ووجدتنى متصلباً صرخت وولولت وخرجت إلى الجيران تنعانى . ثم ما لبثت أن عادت وقد رأيتها من بين جفنى تلبس سواداً من قمة رأسها إلى أخمصها . وكانت تصيح قائلة « يا سبعى ! يا سيدى وصاحبى ! » .

ولم يخل قلبي من الشماتة فيها لطول ما عذبتني قبل موتي . ولم أسمح لنفسي بأن أرق لها وأعود إلى الحياة ، فبقيت متمدداً متصلباً فى ستر ظلام حجرتى .

ثم كان ما كان وغسلت وجهزت ووضعت على الفراش ، حتى يأتوا بالنعش وكنت أسمع ما يدور حولى من الأحاديث ، فعرفت كيف استقبلت ماهوش نبأ موتى . لم يبق فى ماهوش رجل ولا امرأة إلا أسف علىّ وحزن لفقدى . وتحركت أريحية الناس فجمعوا من المال وأنا ميت ما لو جمعوه لى من قبل لكفونى مؤونة الحياة ، ولما بعت دارى ، ولعشت بينهم قرير العين لا أفكر فى موت . وسمعت البكاء والعزاء، حتى امرأتى ريمة كادت تقع على الأرض من لطم خديها . وكنت كلما أتت طائفة جديدة للعزاء كتمت أنفاسى حتى لا يغيب عنى حرف مما يقولون . فخرجت من كل ما سمعت على أن أهل ماهوش مجمعون على محبتى وإكرامى . وكانوا يتذاكرون فكاهاتى ويحفظون من أقوالى ما لا أذكر أنه صدر عنى . فكانت تلك الساعات التى قضيتها فى انتظار النعش أسعد أيام حياتى . . .

ثم جاء صديقى أبو النور ، وكان غائباً يعد لى جهازى ويختار موضع قبرى . وجاء يحمل أكفانى وحنوطى ، ولم ينس أن يفرش لحدى بالرمل والحناء ليكون أرفق بجثمانى . ولما دخل على جلس إلى جانبى ، ولم أسمعه يتكلم أو يشهق ببكاء أو يتحدث برياء ، ولكنى كنت أعرف أنه حزن لفراقى حزناً أعمق من الدمع والرثاء . وقد شعرت بيده تجسنى على حين

فجأة ، كأنه لم يؤمن بموتى . وكانت يده كلما اقتربت من وجهى أحسست رغبة شديدة فى أن أقبلها . ولت نفسى على أننى خدعته كما خدعت الناس ، وأدخلت على قلبه الحزن من أجلى ، حتى كدت أهمس له بالحق ، لولا أننى خفت من افتضاح أمرى .

ثم حملت بعد أن تم تجهيزى ووضعت فى النعش ، وسار المشيعون من أمامى ومن خلفى ، بعضهم ينشد الشعر وبعضهم يتلو القرآن ، وبعضهم يحدث جاره فى شئون تجارته أو سيرة جيرانه . وكان للمشهد ضجيج عظيم ينبئ بما فيه من عدد عديد . وما زلت محمولا فى طرق ماهوش وأنا أعرف كل موضع حملت فيه ، مما كان يصل إلى سمعى من أصوات الأسف يبعثها النساء والصبيان من بيوتهم . فهؤلاء جميعا أهل ماهوش الذين لم أجد وسيلة إلى العيش فيهم حتى اضطررت إلى أن أموت موتاً . وأخيراً بلغ المشهد إلى جانب النهر — نهر ماهوش — من ناحية الجسر الأعظم فخفق قلبى لذلك النهر الذى طالما خفق لمنظره وأنا حى . وكنت منذ يومين قد رأيته فاض وعلا حتى صارت أمواجه ترتطم بالشاطئ ويسمع عجيجها عن بعد ميل . وكانت العادة أن يخوض الناس فيه حتى يبلغوا الجانب الآخر حيث جبانة المدينة . ولكن النهر لم يسبق له أن علا وفاض كما فعل منذ يومين .

وأحسست عند ذلك وأنا فى نعشى تردداً واضطراباً فى الذين يحملوننى كأنهم خافوا أن يخوضوا فى الماء الثائر . وكان ذلك الجزء من النهر عميقاً ، ولو خاضوا فيه لغرقوا وغرقت معهم . ولا أنكر أننى خشيت على نفسى

أن يخطئ المشيعون خطأ لا يداوى . وكنت أعرف فى النهر موضعاً آخر لم يبلغ الماء فيه إلا علواً ضئيلا إذ هناك صخرة كالجسر تعترض مجراه . فتجلدت وتمطيت وشددت نفسى من أربطة الكفن ، وقمت برأسى حتى رفعت الغطاء الحريرى الذى فوق النعش . ولما أشرفت على المشيعين صحت فيهم قائلا :

ــ من هناك من هناك ، فالمخاضة عن يساركم .

وكانوا فى شغل ينظرون إلى النهر ويتحاورون كيف يجتازونه . فما كادوا يسمعون صوتى حتى ارتفعت منهم صيحة فزع وتفرقوا يلتمسون السبل كأنهم قطيع من شياه طلع عليهم ذئب كاسر . ورمى الحمالون النعش فى عنف حتى أحسست عظامى تقعقع . فإذا بالمكان يخلو فلم يبق فيه إلا صديقى أبو النور وواحد من القراء كان لا يستطيع جرياً .

فأخذ أبو النور يفك عنى أكفانى بأنامل مضطربة من الفرح وهو يقول :

ــ لم يصدق قلبى أنك مت حقا .

وبعد قليل سكنت صدمة الخوف عن الناس فعادوا نحوى ولهم ضجيج وعجيج ، يقذفوننى بوابل من ألفاظ التقريع والتأنيب . ولا عجب فى ذلك فقد رأوا أننى لم أزل حيـًا ، وعبارات المودة لا تساق إلا إلى الأموات .

فقمت بينهم متستراً بأكفانى ، وحاولت أن أعتذر إليهم مما سببت لهم من المتاعب ، وبالغت فى ذلك حتى خيل إلى أنهم قد عفوا عنى . ثم طلبت منهم أن يعطونى ما جمعوه من المال من أجلى ، وما أخذوه من

الناس باسمى ، حتى لا أضطر أن أموت مرة أخرى . فانهالوا على بالشتائم وسمونى محتالا وضحكة وخائب الرجاء . ثم انصرفوا عنى .

فعدت نحو دارى أتوكأ على صديقى أبى النور وأجر أذيال أكفانى ، وأنا أقطع نفسى أسفاً وغمـًا ، ولم أجن من وراء كل تدبيرى شيئاً .

وكان أبو النور أشد ألماً منى . فكانت الدموع تتساقط على ثوبه كأنها سمط متصل ، والأنفاس تهز صدره هزًا عنيفاً بعد أن كان هادئاً صامتاً . وقضى معى تلك الليلة حتى طلع الفجر ولم يفارقنى لحظة . ذلك الصديق العزيز !

أما أنا فقد عزمت على أن أهاجر من ماهوش ، فلن أبقى فى بلد لا أجد لى مكاناً فيه . حتى إن الموت نفسه لم يفسح لى بينهم محلا .

١١

خرجت من وطنى ماهوش أسير كالأعمى ، والأفكار تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى . ونظرت حولى فرأيت ربوة ماهوش الخضراء تبسم للصباح ، إذ تلقّى عليها الشمس أول شعاعها الذهبى . ورأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت . هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء . وألقيت نظرى على نهر ماهوش إذ تنحدر إليه الجداول الصافية ، تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى جداولها التى نلمع فى مجاريها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان . ورأيت بيوت ماهوش على سفح الربوة ، تتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير وطويل ، وبين مورق ومجرد ، قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع .

هذه ماهوش لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر ، أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق . فناديت من أعماق قلبى « يا نفس تجلدى ويا عين أغمضى ويا فؤاد التمس النسيان » ، ثم سرت فى الطريق أفكر فيما كان من شقائى فى وطنى الحبيب القاسى ، الذى لم أجد فيه لى مكاناً .

وفيما كنت فى طريقى مطرقاً مفكراً أفقت على صدمة عنيفة دفعتنى إلى

جانب الطريق ، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى ، الذى ما زال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى ماهوش أو خروجهم منها . ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة قريبة ، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمته ، وامتلأ قلبى غماً وتشاءمت برحلتى . فهذا أول الطريق أصطدم فيه وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة . فرأيت فارساً من جنود تيمور هؤلاء أصحاب القلانس العالية ، الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية . وكان ينظر نحوى كأنه ينتظر منى أن أشكره على صدمته . فاعترانى إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الخوف والغضب . فإننى رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها ، ولا أطيق أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظرى . فكيف بى وقد رأيت أمامى رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء ؟ كانت نظراتى إلى الفارس تنم عما كان فى نفسى ، ووقفت أتأمله وكان منظره فى الحق عجيباً . كان مثل الببغاء فى زينته الكاملة : من قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة صفراء تغطى ملابس أخرى لا أعرفها بيضاء وخضراء ، ولف على وسطه منطقة سوداء ، ودلى فى جنبه سيفاً مقوساً منقوشاً بالذهب والفضة ، مرصعاً بالجواهر ، ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم لا يقل فى ألوان زخرفه عن صاحبه . فقلت فى نفسى « سبحان الله ! ما هذا كله ؟ » وجعلت أصعد فيه بصرى وأصوبه من أعلى ريشته إلى حافر جواده ، وأحسست أن خوفى وغضبى قد تبدلا وامتلأ قلبى ضحكاً . فتبسم الفارس وأخذ يكلمنى بلغة لم أفهم منها إلا يسيراً ، فهمت منه أنه يريد أن يعرف

من أنا . فقلت له أريد أن أصرفه وأتجه فى سبيلى : « أنا فقيه »، ثم هممت بالسير ، فهمز جواده يسايرنى ، وقال وفى صوته رنة السرور: « فقيه ؟ » .

فهززت رأسى أن نعم ومضيت فى سبيلى . ولكنه كرر سؤاله فى اهتمام . فخشيت أن ينخدع الرجل عن حقيقتى ، وهو لا يعرف لغتى . فلعل لهذا اللفظ « فقيه » معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفى أو جوهرى فيحسب خطأ أنى ممن يطمع فيهم رفاق الطريق ، فيبادر بإيقاع الأذى بى ، فبادرت قائلا « أديب» . واخترت هذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعاً ، ولا تحمل لبساً ولا يختلط على أحد معناها ، فكل الناس يعرفون من هو الأديب . هو الرجل الذى لا يملك من حطام الحياة شيئاً . ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ ، وكرر الكلمة الأولى سائلا « فقيه ؟ » . فملأت عينى منه وتنازعنى الخوف ، ولكنى رأيت أنه قد بدأ يعبس ، فخفت إن ضحكت أن يغضب ، واكتفيت بأن هززت رأسى له بالإيجاب وفوضت أمرى إلى الله . فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لى ذراعيه . وأقبل على يضمنى إلى صدره ويقبلنى بين عينى ويرطن بكلام كثير . ففهمت منه إجمالا أنه قائد كتيبة فى جيش تيمور ، وأنه طالما طمع فى أن يكون عنده فقيه ليكون لكتيبته زينة إسلامية . فلما عرف أنى فقيه سره ذلك ، وعزم على أن يأخذنى معه . ثم أمرنى فى رفق أن أسير وراءه ، فقلت« سبحان الله ! . أهذه محنة جديدة ؟ » ووقفت حائراً متردداً . فنظر إلى وصاح بى مكرراً أمره أن أسير وراءه . فلم أجد بداً من

السير ، ومضيت في أثره مطرقاً أفكر في أمري . ثم قلت أعزي نفسي « إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئاً من حالي ، فقد خرجت من ماهوش لأسير في الأرض ، وسواء لدى شرق وغرب . وانطلقت أمشي قريباً من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عيني .

وما زلنا نسير حتّى مالت الشمس عن كبد السماء ، وأخذ التعب يدب في أوصالي ، فنظرت إلى الفارس لعلي أرى عليه علامة تبشر بأنه يريح جواده ، فلم أجد على مظهره ما ينم عن شيء من ذلك ، لأنه كان يهز رجليه ويغني مرحاً . ومضى زمن طويل بعد ذلك حتّى بلغنا قرية ، فاجتزنا بها . وفيما نحن خارجان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق ، فلما رآنا أقبل نحونا يسعى ، وكان في زينته أشبه الناس بصاحبي حتّى خيل إلى أنه توءمه وقد ولدا معاً فوق جواديهما . فلما اقترب الفارس منا حيا صاحبه ، ووقف حياله يحدثه ، ثم التفت نحوي وجعل يفحصني ببصره حيناً ، ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام . ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أنني سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوي : « فقيه ؟ » .

فخفق قلبي خفقة شديدة ، ونظرت إليه مندهشاً ، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبني . فملكت نفسي وقلت باسماً « نعم فقيه » . فنظر إلى صاحبه وجعل يحادثه ، ثم سمعت الحديث يحمى والألفاظ تسرع فيما بينهما ، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما ويقف أحدهما حيال الآخر وقفة الحرب والنزال . فدب الأمل إلى قلبي وقلت لعل هذا أول الفرج ، فليس للفريسة من أمل إلا إذا تطاحن عليها الوحوش . ووقفت أنظر

إليهما متفرجاً ؛ وكانا مثل ديكين وقفا ليتناقرا . ولكنى لم ألبث إلا قليلا حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولا كريهاً ، فإن الفارسين لم يقفا وجهاً لوجه إلى نهاية المعركة المرة ، بل رأيت صاحبى الأول يتجه نحوى مجرداً سيفه ليقتلنى . نعم ليقتلنى أنا . ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه « سأقتله حتى لا يكون لى ولا لك » . ففهمت من هذا أن ما بينهما من الجدال كان فى شأنى ، وعلمت أن صاحبى أراد أن يحسم الخلاف الذى بينه وبين صاحبه بأن يقربطنى . وكان لا بد لى من الدفاع عن نفسى بما استطعت ، فصحت قائلا : « حاسب ، ماذا تريد ؟ » .

فتوقف الرجل وجعل يبين لى قصده فى لهجة الاعتذار . فقلت متكلفاً الهدوء : « هذا رأى غير صائب » .

فرد على بكلام كثير يحاول به أن يفهمنى أنه لا يريد إلا العدالة ، فإنه لا يليق عدلا أن أكون فقيه غريمه بغير حق ، لأنه قد سبق إلى وضع يده على . فلم أرد أن أجادله فى ذلك ، والعدالة على أية حال أمر نسبى يختلف الناس فى فهم معناها ، فيراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى ، ولا سبيل إلى تلاقى نظرتيهما . ولم أجد وسيلة تنجينى من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى . فقلت وأنا أرتجف :

ــ هذا كلام حسن . ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن تحتفظ بى حياً ؟ فإنى أقدر على أن أنفعك وتستطيع أن تجد فى خيراً كثيراً .

فنظر إلى غير مصدق فقلت له مسرعاً :

ـ أنا رجل شاعر ، أقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد الخلق ؛ وأقدر على مدحك بما لا تتصور أنه فيك ، فيصدق الناس أنك أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم .

ولست أدرى أفهم قولى أم لم يفهمه ، ولكنى رأيته قد لان ورق لى فأتبعت قولى :

ـ إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاتل خصمك حتى تقتله أو تعجزه . فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقاً أو غرباً كما تشاء .

ولكن هذا الرأى لم يعجبه ، فأطرق مفكراً وهو يتأفف ، ثم رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وجهه كأن فكرة موفقة سنحت له ، وتقدم نحوى باسماً ووضع يده على كتفى قائلا : « عفارم ! » .

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه ، وسرت وراءه فى لهفة . فسمعته يقول له : « أتذكر الكلب الأسود الذى أودعته عندى ؟ » فقال له الفارس باهتمام : « نعم بلا شك وأنا فى حاجة إليه » . قال له صاحبى مبتسما فى خبث « إذا أردته فانزل لى عن هذا الفقيه » وأشار إلى . وصمت قليلا ثم قال : « وإلا فإنى قاتل كلبك عند عودتى » وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل . فنزل عن جواده مترنحاً ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه ، وأن يفعل بى ما شاء . ثم مسح دمعة ثارت فى عينه ، وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط ولست أنكر أننى قد رققت للرجل فى حزنه من أجل كلبه ، وشيعته بنظرى وهو منصرف عنا وفى قلبى مودة له ورحمة .

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك ، فسار صاحبي المنتصر فى طريقه ، وأمرنى أن أسير وراءه وجعل يهز رجليه ويغنى . وسرت وراءه فى شيء يشبه الذهول ، أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء .

وكاد النهار ينصرم وأنا أجرر قدمى وراء الجواد ، وتمشى التعب فى مفاصلى وعروقى ، واستولى الضيق على نفسى ، ولاح لى الفضاء مثل لجة البحر المائج لا تقع العين فيه إلا على مجهول . ثم أقبل الليل بعد أن كادت نفسى تزهق ، فدعوت الله أن يبعث الفرج . ونظرت إلى الفارس فى حقد ، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن . وما كان أشد فرحى عندما رأيته يقف فجأة كأن شيئاً أمسكه . ونزل عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكاناً للمبيت . وكنا قد بلغنا جانب غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها ، قد اكتست أرضها بالعشب الأخضر ، وتشابكت فى أعلاها الغصون . فجلست لألقف أنفاسى وأريح أعضائى ، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله . ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة جمالا باهراً . وهدأ حر النهار إلا ما بقى منه كامناً فى الهواء إذا هب رخاء من الغرب . وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان ، وكسا البساط العشبى الذى تحتها ، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة من النسمات . فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله . وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى ، وشعرت بنشوة تملأ صدرى ، ورأيت صاحبى الفارس يسير فى أطراف الغابة يجمع الأحطاب . فاسترحت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبى إليه وأخذت

أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى .

ولما شعرت بما داخل نفسى من الخفة قمت متجهاً إلى الفارس وقلت له مستعيراً لفظه : « عفارم أيها الشجاع ! » .

ولم أقصد من قولى شيئاً سوى أن أحدثه . وما كدت أفاتحه بهذه الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثى منطلقاً كأننى فككت بالكلمة عقدة لسانه . وسأعيد ما قاله لى بلغتى ؛ فقد كانت لغته رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصًّا . قال باسماً :

— سأهيئ لنفسى طعاماً وشراباً . نعم فإنى أهيئ طعامى بيدى دائماً ، ولا أحب أكلا إلا إذا طبختته وسويته ، ومازجت بين ما يقلى منه وما يسلق ، وقدرت ملحه وذررت عليه الأفاويه بمقدار .

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع ، ويذكر الصنوف وتواريخ صنعها ، وهو فى أثناء ذلك يذهب ويجىء يجمع الأحطاب فى ضوء القمر . فقلت له باسماً : « هذا بديع . ولا شك فى أنك رجل ماهر » . فنظر إلى مسروراً وبدت نواجذه السوداء من فمه الأهتم ، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلا : « ليس هنا إلا بقايا مجففة . ولو كان فى الوقت فسحة لكان عشائى لحماً طريًّا » . ثم أشار بيده إلى الغابة وقال : « سأريك فى الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير فى كبد السماء » .

فقلت له باسماً : « إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمراً » .

فقال مرتاحاً : « وإذا شئت فإنى أريك كيف أطعن بالرمح وكيف

أحطم بالدبوس ، فإنى صاحب السبق فى هذه الفنون جميعاً » .

فضحكت ضحكة لأخفى الرعشة التى سرت فى جسمى ، وقلت مبادراً : « لالا ، ليس فى هذه الحال التى نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف » .

فمضى فى حديثه وجعل يصف لى مغامراته ومنازلاته ، وكلما بدا على وجهى أثر من قوله زاد حماسة ، حتى كان أحياناً يمسك عن العمل لكى يشير بيديه . وفطنت إلى أننى أضيع عليه بعض وقته ، فانتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدح زنده ليورى به ناراً ، فتسللت ذاهباً نحو الغابة ، ووقفت أتأمل أشجارها ، ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون صاحبى قد هيأ طعامه .

وسرت فى الغابة وكان للهواء فيها عطر خفيف من رائحة الأوراق والأزهار ، وكانت ألوان الشجر مختلفة وأشكاله متباينة، فمنه ما كان غزير الورق ومنه ما كان عارياً ، ومنه ما كان ضخم الجذع وما كان دقيقاً يتسلق متوكئاً على غيره . وجعلت أتنقل فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظليلة تتراقص فوقها الظلال ، وكان الليل الساجى يفعل فى نفسى فعل السحر ، فلم أشعر بمرور الزمن ولا بطول السير ، ولم أتلفت إلى ورائى لأنظر أين صرت من صاحبى ، حتى رأيتنى بعد حين أمام صخرة وعرة لم أنظرها إلا عندما صرت على خطوات قليلة منها ، كأنها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سبيلى . فاتجهت نحوها فوجدتها ربوة مهشمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله

من أنياب وأظفار . وهي تنطوى على كهف يبعث الرهبة فى النفس ، تخرج من ثناياه قناة فيها ماء صاف كأنه بلور مذاب ، ينساب جارياً وهو يغنى بخرير يلذ للأسماع ، خافت يشبه التهانف بالضحك فى مزاح العذارى . وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول يلمع النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة من الزبرجد من أثر ما عليه من الطحلب الدقيق . فوقفت لحظات أتأمل المنظر البديع ، وكانت عينى لم تقع من قبل على مثله ، فشملتنى نشوة ، واهتزت نفسى طرباً . ونسيت كل ما كان من هجرتى ووحدتى ، حتى لقد نسيت جوعى ، ووجدتنى أدندن بالغناء . وتواردت على الألحان المشجية ، فجلست على جانب الصخرة وغبت فى غمرة أشجانى ، وجعلت أقلب عينى وأتمتع بالمنظر ، وملأت صدرى من الهواء العطر ، ووجدت كل حواسى نصيباً من اللذة ، من خرير الماء منساباً فى جداوله ، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله ، إلى لون الورد الناعس فى غلائله .

جلست هناك وقتاً لا أدرى أقصيراً كان أم طويلا ، ثم شعرت فجأة بشىء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى ، فما كدت أتنبه له حتى خيل إلى أننى فى عالم صاخب مضطرب . سمعت خفق الأوراق على الأعواد ، ووسوسة النسيم بين الغصون ، وخشخشة الحشرات بين الحشائش ، فاضطرب خيالى وقف شعر رأسى ، ولم أطق البقاء فى مكانى . وهممت بالرجوع إلى موضع صاحبى فنظرت حولى لأرى الطريق التى جئت منها فلم أجد أمامى إلا غابة شجراء ، وضوء القمر يسطع من

فوقها ويتخللها . فخيل إلى أن المكان قد امتلأ أرواحاً من الجان تتلاعب وتتواثب من حولى ، وأسرعت فى سيرى وأنا أتلفت ورائى ولا أتبين لى طريقاً . وفيما أنا كذلك لاح لى عن بعد شىء يتحرك ، يشبه أن يكون قطاً أو فهداً أو ظبياً أو أرنباً أو ذئباً أو غير ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتاً . فشعرت بوجهى يتقد ، ورفعت يدى لألمس جبينى فوجدته بارداً تبلله قطرات من العرق . وحاولت أن أشجع نفسى بأن أسمع صوتى ، فحاولت أن أغنى ، ولكن الألحان شردت عن ذهنى ، وجعلت ألوم نفسى على هذا الفزع الذى لا سبب له وأجاهدها بكل ما استطعت أن أتذكره من الحكم . ولكن ذلك كله لم يجدنى شيئاً .

ثم سمعت صوتاً لا شك فى أنه كان صوت حيوان مسكين يعانى الآلام المبرحة بين أنياب عدو مفترس أو مخالبه أو أظافره . فوقفت حيث كنت وجعلت أستمع . وأمسكت أنفاسى فسمعت الصرخات تتوالى فى فزع ، ثم سمعتها تضعف قليلا قليلا ثم انقطعت فجأة . لقد استسلم الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما لا حيلة له فيه ، وذهب إلى المصير المحتوم فى جوف الوحش المفترس ، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل .

ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر فى الغابة ، فإن هذا هو قانونها الأزلى . ولم يكن من العجيب أن أجد مثلا جديداً من احتيال الكائنات على اقتناص الرزق ، فإن قانون الغابة كان دائماً هكذا : من عزَّ بزَّ ، ومن غلب افترس ، ومن استطاع صيداً اصطاد ، ومن قدر

على الروغان راغ . ولكنى مع هذا اهتززت هزة عنيفة عند سماع ذلك الصوت . فلما عاد السكون العميق إلى الغابة ، خيل إلى أن ذلك الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيعات فى معامع الحرب . وصرت كلما خطوت خطوة تمثلت حولى نضالا متصلا فيه فتك وفيه فناء وفيه مطاردة وهروب . وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة وسمعت بينها خشخشة ، تمثلت لى صورة معركة دامية بين قوى وضعيف أو بين سريع وبطىء . ولج بى التصور حتى ضاقت نفسى بالسكون الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستر تحته حرباً متصلة قاسية .

وتمنيت لو تمزق هذا الصمت عن زمجرة الأسود وضحكات الضباع وفحيح الأفاعى ، فقد كان ذلك أرفق بنفسى لأنه لا يخدعها بمظهر كاذب من سلام مموه خداع . وبدت لى الحياة الإنسانية عند ذلك جنة نعيم إذا قيست بالحياة فى هذه الغابة الساكنة ، لأن الإنسان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء ، وتبيح للبطىء أن يسعى على بطئه ، وللصغير أن يبقى على هوان أمره . وأسرعت فى سيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى أو فى المآل الذى ينتهى إليه سيرى ، وجعلت أخبط بين الشجر خبط عشواء لا أبالى أين تحملنى قدماى . ولم أتنبه إلا فجأة وقد لاحت لى بين الأشجار عن بعد أنوار خبيب تسطع فوق الجذوع والأغصان . فعادت إلى صورة صاحبى الفارس ، فاتجهت إليه وكان السير قد أجهدنى واضطراب الفكر قد نال منى ، فأحسست بتعب شديد يشيع فى أعضائى ، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام الورق

الجاف فراشاً . ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان الفارس ، فوقفت لحظة أنظر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه ، ينحنى على النار ليضع فيها أعواداً تزيدها ضراماً ، ويميل عليها ينفخ فيها ورأسه الأصلع يلمع فى ضوئها والشرر يتطاير من حوله . فلما أحس بمقدمي رفع رأسه وهو يبسم سروراً ، حتى بدت أسنانه السوداء من تحت شاربيه . فارتميت إلى جانبه خائر القوى وخرجت منى آهة نفست بها عن صدرى . فقال لى بعد أن نفخ فى النار نفخة : « لقد سرت طويلا » . فقلت له فى صوت ضعيف : « أما نضج طعامك » ؟

فقال فى مرح : نعم كاد ينتهى . حساء وأرز بقطعة من زند البقر .

فقلت له : هنيئاً مريئاً .

فقال وهو يبلع ريقه : وسنبوذج ولوزينج .

فقلت ضاحكاً : إنها وليمة .

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد المعز : وكأس من النبيذ المعتق .

فقلت مبادراً : أما هذا فلا شأن لى به .

وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى خجلت خجلا شديداً ، لأن لفظى خانني . كنت حقاً شديد الجوع ، ولكن ما كان ينبغى لى أن أدعو نفسى إلى طعامه . وكأنه قد لحظ خجلى فقال لى مترفقاً : ستذوق طعامى وستحكم على مهارتى .

فسرى عنى وقلت مبتسماً : أشكرك . إنك رجل كريم . فنظر إلى

مسروراً، وهز رأسه مرتاحاً إلى مديحي ،وكشف غطاء القدر وجعل يقلب ما فيها بخنجره وهو يمص شفتيه ، ولا أكتم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدري طيبة شهية . وأخرج قطعة لحم فجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر ، وتحرك في مجلسه وفرك يديه مسروراً وقال : « سيكون عشاء عظيماً » . ثم قام يهيئ السفرة ، فقمت معه لأساعده ، وما هو إلا قليل حتى كنا نتسابق في التقام الطعام .

ولم يتم الفارس عن طعامه حتى شرب أكثر زقه وتركه على الأرض مفشوشاً ، وكنت قد أمتعت نفسي بالطيبات وأثنيت على طعمها ورائحتها وكان القمر لا يزال في كبد السماء فقمت لأصلي ما فاتني من الأوقات . وجلسنا بعد ذلك نتسامر ، حتى طالت ظلال الأشجار تحت القمر المنحدر ،واشتد برد الليل فتلففت في ثيابي ، واضطجعت فوق كومة من الحشيش الجاف ، وتغطيت بشيء منه ، وعمد صاحبي إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت .

١٢

قمت فى الصباح فتوضأت وصليت . وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرة عين . فهناك كنت أتمثل قدرة الله فى خلق هذا الكون البديع ، وكنت أصلى بقلبي وعقلى ولسانى . ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئاً من الزاد وأشركنى فيه ونحن على عجل ، وأقبل على فرسه يمسحه ويخدمه وأنا أنظر إليه متعجباً وأسائل نفسى عما جمعنى به . فسرحت أفكارى فيما رأيته الليلة السابقة من نضال بين الأحياء ، حتى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءاً من حياة الغابة . وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتاز به الإنسان على سائر الحيوان ، إذ أقام لنفسه نظاماً وسن من القوانين ما يحمى الضعيف من القوى ، ويكفل الحياة للصغير والبطىء . كدت أنكر كل هذا ، بل لقد خطر لى أن الحيوان فى الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه ، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه ، فالأسود لا يفترس بعضها بعضاً ، ولا يتخذ بعضها البعض خدماً ، ولا تفرق بين أنفسها بحدود ، ولا تجعل فى جنسها أمماً يحتقر بعضها بعضاً أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها . وهى لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الوبيل : تحريك اللسان بنطق اللغات . وليس فيها من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح عليها ، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيولها سواء فى طولها ، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التى يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض. فكل

فرد فى الغابة مساو لكل فرد آخر من جنسه . جعلت أفكر فى هذا حتى بلغ بى الأمر أن تمردت على الإنسانية ، وجعلت أشتد فى تعنيفها واتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع استعانت به على إخفاء الحقائق عن نفسها .

لقد بدا لى عند ذلك أننى أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته ، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه ، وأنه إنما يخدعنى إذ يترفق بى أو يبسم فى وجهى ؛ فإن جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتى لإرادته ، وليس بعد هذا مرتبة أبلغ فى القسر والعدوان .

وساقتنى هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحمق الكائنات وأبشعها وأقساها . تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ التى كان يحلو له منذ القدم أن يخدع نفسه بها . كان فى العصور السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسميها بلفظ جميل فإذا هى عنده إله مقدس يعبده ويتقرب إليه ، ويقوم عليه السدنة والكهنة يتجرون باسمه الجميل . ثم ها هو ذا اليوم يجعل من الجرائم فضائل ويسميها أسماء جميلة — يسميها « الحرب » و « المجد » و « العظمة » وما هى إلا جرائم قتل ونهب وتدمير . هذا « تيمور » وما أحراه أن يكون فى أعين الناس أشد المجرمين خطراً ، وما أجدر الناس بأن يقيدوه فى السلاسل ويجعلوه فى مأمن لا يستطيع الهروب منه . ولكنه أفلح فى أن يسمى جرائمه أسماء جملية فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم فى الأرض .

ومر الوقت سريعاً وأنا أنظر إلى صاحبى وأناجى هذه الخواطر

المضطربة ، ثم رأيته قام وركب وأشار إلى أن أسير وراءه، فقمت خاشعاً ومضى فى سبيله يهز رجليه ويغنى على عادته . ولو واتتنى خفة النفس لغنيت مثله ، ولكن أفكارى أبعدت عنى الألحان جميعاً . فسرت مطرقاً حتى سمعته بعد حين ينادينى . فرفعت رأسى فرأيته يومىء إلى أن أقترب منه . ثم سألنى هل أحب الركوب وراءه ؟ فدار رأسى ولم أدر بم أجيب . فظن الرجل أننى أتردد لأنى لا أعرف الركوب ، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لمن أراد أن يعلو ظهر الخيل ، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب وكيف أتحامل عليه وأثب على ظهر الفرس ، ثم مد يده لكى يساعدنى حتى علوته من ورائه . وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً . فسكنت وراءه وأمسكت بردائه ، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هد قواى فى اليوم السابق

واتصل الحديث بيننا ، وكنت أجد بعض المشقة فى فهم أقواله ، فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى ألفاظه ، ويزيدها فساداً أنه كان أهتم لا يحسن النطق بالحروف . ولكنى مع هذا كنت أفهم قوله تخميناً ، ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه . فكان إذا أراد مخاطبتى لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث فيها ، وإذا أردت أنا مخاطبته أخرجت رأسى من ورائه حتى يرانى . ولست أدرى كيف كان يرى صفحة وجهى ، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عينى حتى يبدى أسنانه السوداء المنثورة

فى فمه . فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبى . وكان أكثر ما قاله لى لا يزيد على وصف مغامراته فى الحروب مع تيمور . ويمكن الإنسان فى سهولة أن يلخص ذلك كله فى بضع كلمات : إنه شارك فى سفك دماء الكثيرين من بنى آدم .

وكنت أحياناً أضيق بحديثه ، وأهم بأن أقذف نفسى من ورائه لولا أن الجواد كان يسير . فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير فى خيالى مناظر الدماء ، واستطعت بعد لأى أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه ، وعن أولاده ، فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناساً لأنه دلنى على أن الرجل كان آخر الأمر إنساناً يعرف معنى المحبة .

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد ، وكان منظره بهيجاً . كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات النسيم. وكان الزهر يتخلل الخضرة بين أحمر وأبيض وأصفر ، ومن فوقه ترفرف الفراشات متنقلة متقلبة تتواثب كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هى لا تستطيع أن تثب وراءها . فملأنى المنظر مرحاً واهتزت نفسى بعواطف نقلتنى إلى عالم من الأحلام ، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسى أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة ، وتصورت عليّه ابنة علاء الدين وقلت ، فى نفسى : « أين أنت الآن يا ملاك السماء ؟ وأين انتهى بك المطاف الذى شردك إليه تيمور ؟ » فما صحوت من تأملى إلا على وكزة فى صدرى ، فإذا بصاحبى يدفعنى بمفصل مرفقه دفعاً مؤلماً . فقلت له وأنا أكظم غيظى : « ماذا تريد منى ؟ » .

فقال لى فى حنق : « ألا تسمع ؟ أقول لك انزل . انزل وأحضر اثنتين من هذه » .

فلم أفهم وقلت له مستفهماً : « اثنتين من أى شىء ؟ » .

فأدار وجهه نحوى وقال : « نعم . اثنتين من هذه . . »

وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب . ما كان أعجب صاحبى هذا فى تقلب نزواته !

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه الخضراء عن قلب أبيض صاف . فقلت متردداً : « بكم ؟ » .

فوكزنى مرة أخرى وقال : « انزل . هات اثنتين . ألا تفهم ؟ » .

فلم أجد مهرباً من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول ، وكان لا يزال واضعاً قدميه فى الركاب يهزهما والجواد سائر به قدماً . فصحت به : « قف الفرس » .

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب ثم ساعدنى على النزول . ولست أدرى ماذا فعلت ، فقد وقعت عن ظهر الجواد وتشبثت بالفارس حتى كدت أوقعه معى ، لولا أنه دفعنى فوقعت على الأرض وحدى ، وقمت أنفض التراب عن ثيابى . ثم اعتدلت وفى وجهى شىء من التحدى ، فصاح بى غاضباً « أسرع ثم الحق بى » وهمز الجواد وسار فى طريقه . فلم أجد بدًّا من الطاعة، وتلفت حولى فلم أجد أحداً ، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبة قريبة ، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يصيح بى : « ماذا تفعل ؟ » .

ثم خرج رجل من عريش فى أقصى الحقل وجاء يجرى نحوى . فنظرت نحو الفارس فوجدته بعد عنى ولا يزال يهز رجليه فوق الفرس ، فوضعت الكرنبة على الأرض وأسرعت لألحق به . ولكن صاحب الحقل لم يدعنى ، وجرى ورائى وهو يصيح ويهدد ويشتم ، حتى أدركنى وأخذ بتلابيبى . وسمع الفارس الصوت فالتفت ووقف الفرس ، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعاً . وكان الرجل يدفعنى فى صدرى ويكيل لى السباب كيلا ، ثم رفع هراوة فى يده وكاد يهوى بها على رأسى ، لولا أن الفارس همز جواده وأدركنى . فلما رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقنى من قبضته ، وقال فى خوف وهو ينظر نحوه : « هل هذا معك ؟ » .

ثم قال للفارس فى خشوع : « هل هو معك يا سيدى ؟ » فأقبل عليه صاحبى وأخذ يقتص منه بما شتمنى به ، ورفع يده بالسوط . فصاح الرجل : « لم أعرف أنه معك » . ثم جرى نحو الحقل فرفع الكرنبة التى قطعتها وقلع معها ثلاثاً أخرى وجاء يحمل كل اثنتين فى يد من يديه الغليظتين ، حتى قدمها إلى – أربع كرنبات عظيمة منفوشة .

فقلت له حانقاً : « ومن سألك أيها الأحمق أن تأتى بكل هذه ؟ » فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ كل غيظه فىّ وقال صائحاً : « خذ فاحمل . خذ أيها الكسول » ثم جعل يدفع إلى واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطانى إحداها شتم شتمة جديدة ودفعنى فى يدى إذ يناولنى . فلما فرغ منها انصرف عنا وهو يغمغم . وجعلت أحتال على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملى ، وقضيت فى ذلك حيناً أضعه فى أشكال

وأوضاع وهو ينفرط ويتساقط ، حتى استطعت أخيراً أن أجمع كل كرنبتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدى من أمام ، ونظرت إلى الفارس منتصراً . فارتاح لما رأى وقال لى « عفارم » ! ثم ابتسم وهمز جواده وسار وسرت خلفه ولم يبق ثمة أمل فى ركوبى .

لم نلبث أن أوغلنا فى ريف جانبولاد ، وكثر الناس على الطريق وفى الحقول ، وكانوا كلما مر بى أحدهم نظر إلى نظرة طويلة يتأملنى وأنا سائر وحملى يهتز فوق كتفى مع حركة جسمى ، ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفى تحته ضحكته . فكنت كلما مررت بواحد منهم نظرت إليه ، حتى إذا رأيته يرفع كمه بادرت كذلك بضحكة ، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة كانت ترن فى أذنى أحلى رنين . أيها الأشقياء من بنى الإنسان ، التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة فى البكاء . التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم ، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع .

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت فى الحياة .

واقتربنا بعد حين من قرية وكانت الشمس قد علت فى كبد السماء واشتد الحر ، فتحرك الفارس فى سرجه ونزل إلى ظل شجرة فى جانب ساقية على مقربة من القرية ، واخترت لنفسى مكاناً معتزلا وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية أو يخرجون منها .

ثم تنبهت على صوت صاحبى ينادينى : « هو . ألا تسمع ؟ » وكان إلى ذلك الوقت لم يسألنى عن اسمى . فعذرته فى جفاء ندائه لى ، ونظرت

إليه مستفهماً . فأشار إلى بيده أن أذهب إليه . ثم قال : « ألم تجع بعد ؟ » وكنت بغير شك جائعاً . فهززت رأسى أن نعم ، وحسبت أنه كان يخفى طعاماً فى موضع لم أره . فقال لى : « إذاً ماذا نفعل ؟ » ففاجأنى سؤاله ولم أحر جواباً . أيسألنى أنا عما نفعل ؟ وهل سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه ؟ ونظرت إليه والعجب مرتسم على وجهى . فأعاد قوله : « ألا تسمع ؟ ماذا نفعل ؟ . . . » فقلت له : « إذا لم نجد أكلا فلا يمكن الأكل » . فلم يعجبه ردى وقبض وجهه وأطرق قليلا ثم رفع رأسه باسماً وغمز بعينه مشيراً نحو القرية . فثارت فى نفسى شكوك كثيرة ، وهززت رأسى مستفهماً . فضحك وقال : « اذهب إلى هناك . فالتمس لنا طعاماً » . وكأن حجراً قد أصاب رأسى عند ذلك ، فتراجعت أترنح وصحت « ماذا ؟ » فأعاد على قوله وإيماءته وبسمته ، فزادت حيرتى . إن أهل القرية كثيرون يبلغون المئات أو الألوف ، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب وحده فما بالى بهؤلاء جميعاً ؟ واستقر رأيى على الإباء . ولم يكن الجوع شاقًّا علىَّ فقد تعودت صوم رمضان فلن أعجز عن صيام يوم واحد . ولكن الفارس صاح بى : « ماذا يؤخرك عن السير ؟ » فتجرأت وقلت : « إننى لا أملك نقوداً » . فنظر إلى نظرة فيها ازدراء ، ولكنه سكن لحظة يفكر ، ثم لمعت عيناه وقال متحمساً : « عفارم ! خذ هذه فبعها واشتر بثمنها » ، وأشار إلى الكرنب . فسمرت فى موضعى ولم أتحرك ، إذ كانت هذه أخت الأخرى ، ولا خيار بين البيض الفاسد . فلما رأى الرجل أننى لا أتحرك قام وهزنى من كتفى هزة عنيفة وصاح بى :

« هو . لا تضيع الوقت » . فلم أجد بدًّا من الطاعة، وحملت الكرنب وسرت به نحو القرية . فلما دخلتها وجدت جدراناً من الطين قد رصت رصًّا ليس فيها سوى فتحات صغيرة أذكرتنى بيوت الدجاج . ورأيت الدواب تخرج منها ، فحسبتها حظائر الماشية جعلت فى طرف من القرية ولكنى كلما سرت لم أر إلا جدراناً متشابهة ورأيت الناس يدخلون ويخرجون منها بثيابهم المتربة وعيونهم الرمصاء . مساكين هؤلاء ، هل يكون بينهم من يشترى الكرنب ؟ وسرت حتى بلغت آخر القرية فوجدت براحاً من الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون بها . وكنت أحب الأطفال منذ خلقنى الله ، ولا أرى منهم أحداً حتى أذكر ولدىّ عجيباً وجميلة . ما كان أشوقنى إليهما وما كان أشد حنينى إلى رؤيتهما ! لقد تركتهما منذ يومين طويلين كأنهما دهر من الدهور . وكنت لا أدرى كيف أمسيا ولا كيف أصبحا ولا أعلم هل أصابا عشاء أم فاتهما العشاء والإفطار . الله لهما من حبيبين فهو أشفق عليهما منى وأبر بهما . وتقدمت نحو الأطفال وأنا أمسح دمعتى ، ووقفت أنظر إليهم وشفتاى تختلجان وقلبى يخفق.

كم كان فى هؤلاء من أمثال ولدى ! وهل كان فيهم من تركه أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت ؟ مساكين هؤلاء الأبرياء ، كانوا يلعبون فى أسمالهم البالية ويفركون أعينهم الرمصاء بأيديهم الملوثة . وتأملت وجوههم الشاحبة . لقد كانت جميلة لو امتلأت لحماً ودماً . ونظرت إلى أقدامهم السوداء . لم تكن سوداء وإنما هو الطين الكثيف الذى كان

يغطيها بلونه الكالح القاتم . مساكين هم ما كان أظرفهم فى تواثبهم وتضاحكهم وتعابثهم ! وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكى أشاطرهم ما هم فيه ، وأعلمهم كيف يسددون الرمية ، فقد كنت فى صباى عميداً للصبيان فى لعبهم . وما كدت أقترب منهم حتى سددت إلىّ الكرة من يد أحدهم ، فوقعت فى صدرى وصدمتنى صدمة كدت أصرخ من ألمها . لم تكن كرة علم الله بل قطعة من الطين اليابس القاسى . فوقفت ووضعت الكرنب على الأرض لأمسح ما علق بثيابى من الوسخ ، وما كاد الشياطين يبصروننى أفعل هذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا علىّ يصفقون ، ويستعدون لكى يتخذونى هدفاً لقذائفهم ، فخشيت على نفسى وحملت الكرنب مسرعاً ورجعت من حيث جئت وأنا أسمع تناديهم وتضاحكهم وتحريض بعضهم على أن يسرعوا لتسديد قذيفة جديدة ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى . وكان قلبى مع ذلك لا يزال يخفق حنيناً إليهم عندما بلغت أقصى الميدان وبعدت عن مدى رمايتهم .

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرنب والفارس ، وجعلت أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل القرية على شراء سلعتى ، فتذكرت الباعة فى وطنى ماهوش ينادون على سلعهم بالأسجاع والنغمات المطربة ، ويصفونها وصفاً شعرياً يحببها إلى الشارين . فجعلت أنادى على الكرنب وأتغنى به وأستعير له كثيراً من صفات الزهر والعطور والحرير . ولست أدرى ما الذى حمل أهل القرية على أن يجتمعوا حولى ويضحكوا كلما سمعوا ندائى ، كأننى كنت أناديهم لأضاحكهم .

ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس يسيرون من ورائى نساء وصبية وشباناً ولم يتقدم أحدهم للشراء ، حتى يئست وعزمت على الرجوع خائباً . ولكنى فكرت فى ثورة صاحبى إذا عدت إليه بغير طعام ، فنظرت إلى الجمع الذى كان حولى وسكت عن الغناء ، وقلت لهم بكلام ساذج : « ألا يريد أحد فى هذه القرية أن يشترى كرنبة منى ؟ » فضحكوا جميعاً واقتربت منى عجوز فقالت ضاحكة : « فعل الله لك . هل تريد بيعاً ؟ لقد كنا نحسب أنك تغنى إعجاباً بخضرك » فأجبتها منكسراً : « أسأل الله لك الستر يا أماه ، لم يكن بى إعجاب بل لقد ضقت بها وثقلت على كاهلى . وإنما غنيت ليشترى الناس منى على عادة قومى فى ماهوش » . فضحكت وضحك سائر من حولى وتصايحوا فيما بينهم : « غريب غريب ! » وتواثبوا إلى من كل ناحية يقلبون ملابسى ويجسونها ويمسحون أيديهم عليها ، وجعلوا يمطروننى بالأسئلة عن وطنى ومتى جئت وإلى أين أذهب . ولم أستطع أن أجيب عن شىء من ذلك كله بل شعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر : « هذه كرنبات فاشتروها منى بدريهمات أشترى بها طعاماً » . وكأنهم سمعوا منى مزاحاً فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات : « غن لنا مرة أخرى يا عم » . فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصيح صيحة أخرى مؤنباً ، ولكنى سمعت من ورائى صوتاً ينادى : « عفارم ! » فعرفت الصوت ونظرت إلى ورائى فى فزع وأردت أن أشكو إلى الفارس ما لقيت ، ولكنى رأيت وجهه يتحرك بالغضب ، ورأيت شاربه يهتز كشارب القط إذا كشر ، ولم

أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف ، فتحطم وتطايرت أجزاؤه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء ، ثم صاح فى وحشية : « ما هذا ؟ » .

وما كاد الجمع يراه حتى انفض من حولى ، فجرى النساء والصبية وهم يصرخون ، وانصرف الرجال يتلفتون إلى وراء . فقلت له وقد غضبت : « ماذا ؟ » فصاح بى صيحة لم أفهم معناها ثم مضى إلى أقرب منزل فطرقه وخرجت إليه امرأة فأمرها أن تحضرله طعاماً ، فأسرعت داخلة إلى الدار ، ولم تبطىء حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن وبيض . وما كان أشد عجبى عند ما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت ، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحداناً ، وكل منهم يحمل شيئاً فى يديه أو فى صفحة أو قرطاس ، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدر كيف أحمله . وسار الفارس فى كبرياء إلى خارج القرية عائداً إلى ظل الشجرة وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله فى يدى ، وسار الناس من ورائنا فى موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا ، فألقوا ما معهم وهم يتأدبون ويظهرون المودة . ثم ساروا سراعاً كأنهم يلتمسون النجاة . ووالله لو كنت وحدى لقضيت النهار كله فى سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية .

أكلنا هنيئاً ثم جلسنا نتسامر ، وقد عادت أخلاق صاحبى إلى الموادعة ولم أتمالك أن سألته : « أيعرفك أهل هذه القرية ؟ إنهم قد أكرموك حقاً » . فقال وهو يضحك: « إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة » .

ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزرقاء . وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة : « إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش . خذ ما تستطيع قسراً . اعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك . املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعاً رأسك . خذ ضريبتك أنى وجدت إليها سبيلا » .

نعم هكذا الدنيا ، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة .

وبعد أن قضينا فى الراحة ساعة قمنا إلى السير ، وأبيت أن أركب عندما سألنى الفارس أن أفعل ، بل شكرته وسرت على قدمى أتأمل ما قاله لى، وقلبت نظرى فى الريف وما فيه من جمال الطبيعة ، وتمنيت لو كان أهل القرية بعض حيوان الحقل . لقد كانت قطعان الماشية ترعى فى المرج الأخضر سمينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة ، تسر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جل وعلا .

ومر وقت طويل وأنا سائر أفكر فيما يقع عليه بصرى ، حتى سمعت صوت صاحبى ينادينى ، فنظرت إليه فرأيته يشير بأصبعه إلى الأفق . وكان النهار قد انقضى إلا أقله ، وأقبل الليل وأخذ النور يتضاءل ، ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها صانع ماهر فوق طومار كاغد . وبعد قليل لمعت الأنوار تبص خافتة من بعيد منثورة على الأفق فى غير نظام . وخفق قلبى عندما سمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة: « جانبولاد » .

١٣

لم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فى جانبولاد فراغاً للتفكير ولا للترفيه عن نفسى ، فقد كنت فى شغل شاغل من أمر حياتى الجديدة ، وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش . فاتخذت لى مسكناً فى جوار صاحبى الفارس غرفة وفناء واسعاً تسطع فيه الشمس من شروقها إلى غروبها . وأعددت فيه القليل من الأثاث ، ولم أنس أن أبعث مع بعض التجار خبراً يطمئّن أهلى فى ماهوش ، وأرسلت إليهم شيئاً من الرزق الذى أصبته .

ولما استشعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديدة ، أخذت أدير عينىّ فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حللت فيه .

وجانبولاد مدينة عظيمة تجتمع فيها خيرات ريف خصب . وكانت من قبل تراثاً لعلاء الدين سلطان ماهوش ، ثم نزعها منه تيمور فيما نزعه من أرض السلاطين .

مسكين علاء الدين ، إننى لا أذكره إلا ذكرت الدين والمكرمات جميعاً . ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور أقواهم وأعظمهم ، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء . وعلية ابنة علاء الدين ، إن قلبى لم يخل يوماً من صورتها ، وما زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى .

أيها القلب اتئد فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام !

وما عليه مما أنت فيه ؟ ما هى إلا صورة ، فلتقنع بصورتها ولتجعلها نجية وحى العلا .

قضيت الأيام فى هذه المدينة أتعلم كل يوم معنى جديداً . من غريب أمر الإنسان أنه يرى فى البلد الأجنبي ما لا يراه فى البلد الذى ولد وعاش فيه . فكل ما يحيط بالإنسان فى بلده مألوف معروف ، مع أنه قد يكون للأجنبى عجباً من العجب .

ولست أقصد هنا أن أصف أهل جانبولاد لأبدى فيهم رأياً ، فمن ذا الذى نصب بعض الناس ليحكموا على البعض ؟ لا بل إنى أحس فى نفسى أشد الحاجة إلى عطف الآخرين على وتغاضيهم عن عيوبى ، فلست بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات. علمتنى الحياة أن آخذ الناس كما أراهم ، فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم أن يعيشوا . إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائك السماء ، وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها ورثاؤنا لهم ، لأننا من البشر نحس ثقل الطين فى طبعنا . وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطئ والآثم ، لأن هؤلاء أحوج إخوانه فى البشرية إلى عطفه .

ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل فرد ، وقد يكون الشىء حسناً فى عين إنسان فإذا به نهاية القبح فى عين إنسان آخر .

ولقد كدت أعدل عن أن أقص حرفاً واحداً فى وصف جانبولاد ، لولا أننى أردت أن أتحدث ببعض ذكريات حياتى فيها ، وأتأمل مناظر

الماضى ، كما يتأمل مناظر السهل من صعد فى الجبل إلى قمته . فإذا لم يجد فى تأمله درساً يستفيده لم يخل من متعة الذكرى .

كان صاحبى الفارس أول من عاشرت من أهل المدينة ، وقد وجدت على طول الزمن أنه فى دخيلة نفسه إنسان . عرفت فيه أموراً كثيرة دلتنى على أنه من أرق الناس نفساً ومن ألينهم شكيمة . واسمه « طوطاط » ويعرف بين العامة باسم « وطواط » ، فإن لأهل « جانبولاد » عادة فى تسمية حكامهم أسماء يخترعونها ، أو يحرفونها عن أسمائهم ، أو يفيضون عليها بعض أفاويه من فكاهتهم . وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة ، وهذا مما حببهم إلى ، فالفكاهة أولى علامات الإنسانية . وهم يجدون فى فكاهتهم ترفيهاً كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة . وخواص جانبولاد لا يخشون من عامتها شيئاً هو أشد عليهم من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة .

وكان صاحبى الفارس لا يملك فى بيته أمراً ولا نهياً ، لأن له فى بيته امرأة تسيره وهو بذلك سعيد ، لا يرد لها أمراً ، ولا يفكر معها فى شىء ، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته شأناً . فهو إن كان فى طرق جانبولاد أسداً لم يزد فى داره على أن يكون حملا وديعاً .

وكان فى « طوطاط » إخلاص ومودة ، حتى كدت أعده صديقاً . بل لقد كان له على فضل فيما بعد لن أنساه له أبد الدهر . ولكنه رجل صاحب نزوات تثور به بين حين وحين ، إذا ثارت فلا يدرى المرء إلام تنتهى به . وقد اعترته نزوة من هذه مرة ونحن معاً فى داره وكان قد

شرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد ، فعزم على أن أشرب معه . وشكرته معتذراً فألح على ، ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشربن معه ، وكان ذلك على مسمع من زوجه . فوقعت فى حيرة لم أدر معها ما يجب على أن أفعل . فهل أعصى الله وأقارف إثم الخمر ، أم أطيع الله وأفرق بينه وبين امرأته ؟

ولم يكن التفريق بينهما هو الذى يزعجنى ، لأن أكبر ظنى أنه كان خيراً له لو تزوج أخرى تكون ألين منها جانباً وأرفق به فى التعتعة . وإنما الذى حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنا لم أنزل على حكمه وأبر له يمينه ، فإن الزوجة ما كانت تتركنى أخرج من دارها سليما . فاضطررت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده ، وحسبت أن هذا يخرجنى من الحرج . ولكنه أبى وأصر على أن أنادمه سائر الليلة ، ولم يجدنى معه اعتذار بأمر من أمور الدين أو الصحة ، فكنت كلما أبديت له عذراً قطع على السبيل بيمين جديدة . وجعل يعجب منى إذ أريد أن أعيش فى جانبولاد بغير أن أتمتع بمباهج الحياة ، وحلف لى أغلظ الأيمان أننى أكون ضحكة بين الناس إذا أنا لم أسايرهم فى حياتهم . فأخذت الكأس ورفعتها إلى فمي ومصصت منها مصة أظن الله يغفرها لى ، فقد قصدت بها أن أبر له يمينه . ثم قمت مسرعاً فذهبت إلى الخلاء وادعيت أن برداً أصابنى ، حتى إذا ما صرت خارج القاعة قذفت بنصف ما فى الكأس ثم عدت لأنادمه . وكلما رأيته ينظر إلى رفعت الكأس نحو فمى وقمت مرة أخرى إلى الخلاء .

ولم يطل بى الخوف منه بعد قليل ، فقد شغله عنى طربه عندما دب الشراب فى دمه ، وكأنى به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعد ثلاث كؤوس ، حتى لا أنقص ما بقى له فى الدن ، ولهذا رأيته لايصر على إعطائى كأساً رابعة عندما أظهرت له قليلا من الامتناع .

وكان فى تلك الليلة مدهشاً . كانت أقل لفظة أفوه بها تبعثه على أن يتمرغ على الأرض من شدة الضحك . وقد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب الناس وأكرمهم . فصار لا يطيق البعد عنى ، وكلما رآنى مقبلا استعد للضحك ، فلا أكاد أنطق بحرف حتى ينفجر مقهقهاً كما يعطس الإنسان إذا قربت من أنفه النشوق .

ولم يكفه هذا ، بل أذاع عنى بين أصحابه جميعاً أننى نديم حلو الفكاهة شهى الأحاديث ، وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا شربت ثلاثاً كنت أبرع الناس فى المنادمة . سامحه الله ، لقد كلفتنى قالته هذه مشقة كبيرة فيما بعد .

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى يحكم لنفسه ، بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء . فصرت بعد ذلك لا أنطق بحرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل أركانه . فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل الفكاهة ، بل لقد تعمدت أن أنطق بالفاتر البائخ من القول ، ومع ذلك فما كنت أرى الضحك يزداد إلا علواً . هكذا الناس ، قلما تجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم .

ومهما يكن من الأمر فقد رضت نفسي على تحمل نزوات صاحبي ، لأن حسناته تغلب السيئات ، وهذا حسبه من الإحسان . وكنت أجد متعة في مصاحبته ، فجلنا معاً في طرق جانبولاد ، وزرنا حدائقها ومساجدها ، وأسواقها المزدحمة وأحياءها الفقيرة وأحياءها العامرة بالقصور المنيفة ، فوجدتها مثل سائر بلاد الأرض : يسكنها الناس مجتمعين لكي يمكر كل جار بجاره . هذه حقيقة أبدية ليس فيها جديد في جانبولاد . وكنت إذا سرت في صحبة « طوطاط » أسلم من العدوان ، لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق ، حتى في أشد الأسواق زحمة ، مع أني كنت إذا سرت وحدي لا أنجو من الدفع والخبط ، وكثيراً ما أصابتني ضربات من العصي إذا مررت بقوم يتعاركون . وقد كنت ذات مرة أسير وحدي في طريق خالية ، فسمعت قوماً يتخاصمون ويتقاتلون ، فاستغاث بي أحدهم ، فذهبت لكي أعين على السلام والوئام ، وشغلت بسماع حجج الخصمين ووزنها ، وتأمل مواضع الحق فيها ، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق ، وسرت عنهم راضياً ، تلمست ردائي فلم أجده . فنظرت ورائي وحولي فلم أجد منه شيئاً ، كأن الأرض قد ابتلعته . ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجد أحداً هناك سوى شيخ يدب على عصاه ، فلما رآني أبحث سألني عن الخصام فيم كان . فقلت له إن القوم كانوا يتخاصمون على ردائي فأخذوه . فنظر إلى الرجل في عطف ثم مد يده إلى وسألني « حسنة » ، فأعطيته ما كان معي وهو قليل ، فنظر إلى ما أعطيته فاحصاً ، ثم انصرف عني وهو يغمغم شاتماً . هذا يحدث لي إذا

سرت وحدى ، ولكنى كنت إذا سرت فى صحبة «طوطاط» رأيت على وجوه الناس إجلالا وأدباً ، وقد سألته فى ذلك مرة فضحك وقال : « من أراد صلاح قوم أخافهم » .

وفى هذا حق كثير بغير شك ، فقد خلق الله فى الإنسان غرائز كثيرة ، والخوف من أعجبها أسراراً . فهو يتشكل فى شتى المظاهر كما يتصور الجنى فى صور الإنسان والحيوان . فالخوف يتخذ حيناً شكل الحب ، وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب ، وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس فى الحقيقة سوى الخوف . ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح ، والخير كله لا يكون إلا فى الحب ، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا فى المحبة .

وقد أطلعنى صاحبى « طوطاط » على حقيقة فذة فى جانبولاد لم أشهد مثلها فى بلد من البلاد التى رأيتها . ذلك أنى رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلاماً مختلفة الأعداد ، فبعضها يحمل عشرة ، والبعض يحمل عشرين أو أكثر ، والبعض لا يخفق فوقه إلا علم أو علمان . وكانت البيوت التى لا تعلوها أعلام بيوتاً ضئيلة حقيرة المنظر . فوقع فى نفسى من ذلك شىء من العجب ، فعهدى بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالا بمرور السلاطين فى المدينة . وسألت صاحبى عن سرها فقال فى دهشة : « ألم تر هذا من قبل ؟ » فقلت له : « لعلى رأيته ولكنى لم أتنبه إليه » .

فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به جانبولاد . فقال :

نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور . كل شيء هنا مقرر على نظام مرسوم . هكذا يحكم تيمور دائماً .

فانتقل بى خاطرى فجأة إلى الغابة التى رأيتها فى طريقى وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة .

وقلت لصاحبى فى حماسة : لا شك فى أن النظام أساس العمران .

فقال وهو يرفع صدره ويميل برأسه فى كبرياء :

ـ هنا طائفتان تحكمان جانبولاد : الأولى نحن .

ثم أشار إلى نفسه إشارة زهو .

فقلت فى هدوء : طبعاً .

فقال : ولكل أمير منا علامة تميزه . فمنا صاحب الريشة ومنا صاحب الريشتين ومنا صاحب الثلاث .

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهى .

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته : نعم صاحب الثلاث .

فقال مبادراً : ستكون لى بعد قليل ريشة أخرى . لا شك أن تيمور يزيدنى ريشة إذا عاد من حربه مع بايزيد . وسيعود بعد قليل . ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضعه فى قفص من حديد ؟

فخرجت منى صيحة : قفص من الحديد ؟

فقال باسماً : نعم . وسيأتى به إلى هنا لنراه فى قفصه ، ثم يذهب به بعد ذلك إلى سمرقند لكى يجعله فى طليعة موكبه العظيم .

ثم نفخ صدره وعبس .

فقلت بغير وعى : بايزيد فى الموكب ؟

فصاح بى غاضباً : نعم إنها آية لمجد تيمور .

فلم أشأ أن أجادله فى هذا الأمر فقلت : نعم .

فقال وكأنه نسى ما كان يحدثنى فيه : سينظر الناس إلى عاقبة من يقاوم تيمور . هو الأسد الذى لايقاوم والنسر الذى لايسامى . وليس لأعدائه إلا القهر والفناء .

فهززت رأسى وفى حلقى غصة ولم أملك جواباً ، وضاق صدرى بأنفاسى ، وعادت إلى صورة الغابة .

فقال صاحبى مستمراً : فإذا عاد تيمور إلى هنا رأينا عدوه فى القفص وشفينا النفوس من كبريائه المحطمة .

فقلت له : إنك تكرهه . هل رأيته ؟

فرفع حاجبيه وقال : ولم أراه ؟

فأردت أن أبعد به عن هذا الحديث فقلت له :

— وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى ؟

وأشرت إلى قلنسوته . فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال : نعم . ريشة أخرى هنا .

فقلت مشجعاً : وثالثة ورابعة .

فضحك حتى تراجع إلى الوراء ، وقال : « إنما هى ثلاث ريشات ليس بعدها إلا الأذناب » . فصحت ضاحكاً : الأذناب ؟

فقال ضاحكاً كذلك : نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة . هؤلاء هم

أعلى الفرسان . ليس فوقهم سوى تيمور .

فقلت بغير تفكير : إذاً فالأذناب فى القمة .

فقال موافقاً : ثلاثة أذناب ليس بعدها إلا تيمور .

فقلت : وماذا يحمل تيمور العظيم . حدوة فرس؟ سيف ؟ سن فيل ؟

فقال ضاحكاً من جهلى : لا ، بل هى عمامة كبيرة .

ثم نظر إلى عمامتى وقال : أكبر من هذه .

فشعرت بشىء من الكبرياء وضحكت قائلا : ثوب آخر يجعلها كعمامة تيمور .

فضحك صاحبى كعادته إذا سمع كلماتى ، وضرب بيده على كتفى وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فقال : سيكون موكبه عظيماً بغير شك . وسيعطينى بعد ذلك ريشة أخرى .

فخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم ، فقلت له مذكراً : هؤلاء هم أصحاب الريش والأذناب . هؤلاء هم الطائفة الأولى .

فقال وقد تذكر : نعم وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور .

فصحت ضاحكاً : قدور فوق الرءوس ؟ مساكين !

فعاد إلى الضحك وقال : لالا ! بل هى قدور ملأى بالذهب الأصفر الصافى . كلما جمع أحدهم قدراً ختمها ووضع على داره علماً جديداً يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة .

فهززت رأسى وقلت كالحالم : قدور ملأى بالذهب !

وأطرقت أفكر فى هذا النظام العجيب . فما أغلى هذه الأعلام التى

لا يرفع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب . وذهبت بى الأفكار مذاهب شتى فى تصور حال جانبولاد ، حتى هزنى صاحبى وقال لى : « انظر إلى هذا المنزل » وأشار إلى بيت على يسارى . فوجهت نظرى إليه فاتراً فرأيته قصراً عظيماً تلمع جدرانه ، وتبتسم بساتينه . ورأيت فوقه خمسين علماً تخفق فى الهواء فى مرح وكبرياء . وقال « طوطاط » . « هذا بيت صاحب السيف . كلمة واحدة منه تكفى لأن تطيح الرأس عن الجسد فهو صاحب الأعلام الخمسين . قاضى جانبولاد » .

فاعترتنى قشعريرة من سماع هذا القول ، وجعلت أفكر فى أمرى وأمر الناس ، وموضعى فى هذا البلد الذى تكفى فيه كلمة من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرءوس عن الأجساد . ولكنى ما لبثت أن هدأت نفسى ، فإنى جئت إلى جانبولاد لاجئاً ، ولا ينبغى لى أن أتكلم ولا أن أناقش ، فإذالم تعجبنى هذه الحال فباب المدينة مفتوح أستطيع أن أخرج منه إلى حيث شئت . ولم يكن أولى بى من أن أضع لسانى بين فكى وأطبق عليه شفتى . وعند ذلك تبين لى ما يعترى الغريب من الذلة . ولو كنت فى ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة ، فإنى كنت هناك أتكلم وأنتقد وأسخر أحياناً ، ولم أسمح لأحد أن يكم فمى ولاحت لى الحياة فى ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض، واشتد حنينى إليها وأطرقت حزيناً أستعيد ذكراها .

ولاحظ صاحبى وجومى وإطراقى فقال لى : أراك تعبت !

وكنت قد تعبت حقًّا فقلت له : صدقت .

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال : هلم نسترح قليلا .

فترددت قليلا ، فما كان ينبغى لى أن أجلس على قارعة الطريق فإن هذا مذهب للمروءة .

ولكن صاحبى مضى فى وجهه حتى جلس ، وأخذ يصفق بيديه فجلست معه ونظرت حولى أدير عينى فى الجلوس ، فلم أر فيهم شيئاً يستحق التأمل . كانوا جميعاً جالسين بعضهم مسترخ فى صمت وبعضهم يتخاصم فى صخب ، فلت على « طوطاط » وقلت له :

— أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأياً ؟

فقال فى دهشة : ماذا تعنى ؟

فقلت : أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة ، وفيها خلق كثير لا أعلام لهم ولا ريش . فما حظ هؤلاء منها ؟

فقال فى بساطة : من تقصد ؟ هؤلاء العامة ؟

فقلت منكسراً : نعم ، من لا ريش لهم ولا أذناب مثلى .

فقال ضاحكاً : هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون .

فطعنتنى كلمته طعنة شديدة . وخيل إلى أن عذاب الجحيم نفسه أهون على من الإقامة فى بلد ليس لى فيه إلا أن أصمت . وجاء عندذلك خادم المكان يحمل القهوة . وكنت أحبها فأقبلت عليها أرشفها ، وشغل عنى صاحبى بمساومة بعض الباعة الذين جاءوا يعرضون سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق رءوسهم ، وكانت مساوماته أشبه الأشياء بالنضال ، حتى لم يخل بعضها من الدفع باليد والسباب . وكان الباعة رجالا يستطيع أحدهم

إذا شاء أن يدير ساقية بزنده ، ولكنهم كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيراً لا يزيد ثمنه على دريهمات . ففهمت عند ذلك السر الخفى . فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد بأن يقيموا فيها خاضعين ، ويضعوا ألسنتهم داخل أفواههم . فليس بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهم* اقتناص الرزق الضئيل . وجمع صاحبى كومة كبيرة مما اشتراه من أصناف كثيرة مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشترى ليموناً . فتنبهت على صوته وهو يشاحن البائع ليأخذ منه ليمونة عاشرة ، فلما سخا له البائع بها أعطاه دانقاً ثم التفت إلى وقال : أف لهؤلاء الباعة ما أشد لحاجتهم !

ولما رآنى مشغولا عنه هزنى بيده وقال : أراك غارقاً فى تفكيرك .

ثم أخذ يجمع السلع ويضعها فى منديل كبير ولكن المنديل لم يتسع لها ، فقلت له باسماً : هذا حمل كبير .

فقال وهو يغمز بعينه : عندى الليلة بعض أصحابى . وحبذا لو كنت معنا .

فتذكرت الليلة التى عربد فيها على وفهمت من غمزة عينه أنه يشير إلى الكؤوس الثلاث التى ظن أننى شربتها ، ولم أجد جواباً أرد به فاستمر قائلا :

— هم جميعاً من أصحابى المقربين ويسرهم وجودك بينهم. لقد سمعوا عنك وهم يحبون أن يتمتعوا بحديثك . وعلى فكرة — هم جميعاً من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم .

ومال على هامساً : لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام فى جانبولاد .

فأثارنى قوله وقلت : « ما هذه الأعلام التى جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة ؟ وما هذه القدور المختومة التى فى باطنها الذهب ؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو الطين ما دامت مقفلة » .

فضحك « طوطاط » حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال :

— سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها .

فقلت فى عناد : وما الذى يشق على فى ملء عشرات من القدور بالحصى . إن قدراً من الخزف لا تزيد على الأخرى إذا كانت مختومة .

فعاد إلى ضحكه وقال : لن تستطيع .

فقلت : وما الذى يمنعنى ؟

فقال وهو لا يزال يجمع بضاعته : الذى يمنع من السرقة .

فقلت : ولكن السرقة جريمة .

وكان قد قام ونادى رجلا يسير أمامه . فأمره أن يحمل له بضاعته ، فجمعها الرجل فى حجر ثوبه ، ونظر صاحبى إلى فى عجلة وقال : « ستكون وليمة مرحة ، وأرجو أن تؤنسنا بصحبتك » .

وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فسار وسرت معه ، وجعل يحدثنى عن صنوف الطعام التى يعدها لوليمته ، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغنى ، والحمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل .

١٤

قضيت ليلتى فى أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة فى ماهوش .

أى وطنى الحبيب الذى قسا علىّ ! إنك لا تزال فى قلبى مع كل قسوتك ، وكلما مرت بى الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك . لقد هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكاناً يرضينى ، ولأننى لم أجد فيه رزقاً يغنينى . ولكنى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد أن وطنى كان يمنحنى ما هو أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق : الكرامة والحرية ، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها ، فواحر قلباه !

ورأيت فى حلمى كل الأحبة : رأيت ولدى عجيباً وابنتى جميلة ، ورأيت صديقى أبا النور . ثم رأيت مع كل هؤلاء علية . علية ابنة علاء الدين التى ملأت قلبى حبًّا ونوراً . وحدثتها وبثثتها لوعة الفراق وناجيتها بأشجانى الثائرة وعاتبتها عتاباً طويلا . عاتبتها فى حلمى كأنها هى التى هجرتنى وخلفتنى وحيداً . فلما قمت فى الصباح وجدت قلبى ممتلئاً بها . لقد كانت فى ماهوش تعيش فى قصرها وحوله الحراس والحجاب ، لم أستطع يوماً أن أدنو من أسواره . ولكنها مع ذلك كانت دائماً قريبة منى . قريبة لا يفرق بينى وبينها حجاب لأنها كانت فى قلبى . كانت صورة وكانت خيالا . وما حاجتى إلى غير صورتها وخيالها ؟ إننى لم أنال الجسم الذى يذوى ويمرض ويضعف ويزول ؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كمالها .

قمت فى الصباح كعادتى فذهبت إلى المعسكر وصليت بالجنود ، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد. هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور الملأى بالمعدن اللامع . ولم يكن بى من حقد على أحد ؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون . والذهب عندى لا يزيد على سائر مادة هذا الطين . ولو كنت يوماً راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامى فى الملكوت ، ثم رأيت خمسين قدراً ملأى بالذهب تهوى فى الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب إليها . وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة ، لأنى أخذت نفسى بما علمت ، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور . سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة ، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين . فليس بى من حقد أن يسعى إليه الناس ويستأثروا به ، وحسبى من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل . ولكن الذهب شىء والكرامة شىء آخر ، ولا علاقة بين هذه وذاك . فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناساً . فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها .

ولكن . . . أواه من شعور العاجز بعجزه ! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد . هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى إصباحى وإمسائى ،

وفى نومى وصحوى ، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلى . وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيقى مخرجاً . عزمت على أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير ، وأبذل فيه كل ما أستطيع ، وأهب فيه للناس من قلبى ومن عطفى ، فلن أحس فى مثل هذا العالم ذلاً ولن أبالى من أمور الناس همًّا . فعزمت على أن أقف حياتى كلها على خدمة المساكين فى جانبولاد ، وما أكثر مساكين جانبولاد ، هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شىء إلا أن يصيبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع . استقر رأيى على أن أكون خادماً لهؤلاء أعلمهم وأرفه عنهم وأواسيهم ، ورسمت لنفسى خطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف .

فكنت إذا فرغت من صلاتى وفرغ الجنود من تقبيل يدى عقدت لهم مجلساً قبل أن ينصرفوا ، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة ، وأن أبصرهم بحياة الإنسان . وكثيراً ما كنت أرى فى أعينهم الدمع كلما لمست جانباً رقيقاً من قلوبهم ، فكان هذا يملأ قلبى سروراً ، وكنت أحمد الله الذى يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال ، والخير لا بد أن ينتصر يوماً ، والدمع الذى يثور فى العين مرة لا يضيع سدى .

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلب فيها نظرى ، وكنت فى كل يوم أجد فرصة جديدة أتخذ منها مطية إلى الخير . مساكين أهل جانبولاد ، كنت أمد يدى إليهم فتغنيهم وإن لم يكن فيها شىء من الذهب . كم من كلمة طيبة يجود بها القلب فتغذى الروح لا يقاس بها

عطاء من فضلات الغنى . وكنت كل يوم أذهب إلى المسجد الأعظم وأتخذ فيه مجلساً إلى جوار عمود ، فيجتمع حولى من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة . وفى هؤلاء كنت أجد السلام والكرامة . كنت أحس أننى أصب عليهم مما فى قلبى وأضيفهم فى حنايا صدرى . وما كان أعظم ما نلت من السعادة فى أعقاب هذه الدروس ! كنت أحس أن النور يجلو روحى ، وأن الحق يحل فى كيانى فيملؤه قدسية ، فإذا بى لا أرى فى الكون كله إلا تسبيحاً وترتيلا .

هناك بين المساكين كنت أرى الزهر يانعاً ، وأشم العطر فياحاً ، وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع ، وأفهم من وحى العلا ما لا يبلغه العقل . كان روحى يهيم ويكشف الغطاء عن الأسرار ، ويتلبس بحقائق الأزل ، فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس ، بل الكون أنا وأنا الكون . هناك بين المساكين سموت حتّى أشرفت على العالم الصغير ، وعلى من فيه من الدّبَى المغرور : تيمور وجنده من أصحاب الريش وأصحاب الأذناب ، وجانبولاد وعليّها من ذوى القدور والأعلام . وكنت أشير بأصبعى إلى الأنوار التى كانت تتلألأ فى كل مكان أمام بصيرتى ، فيتطلع المساكين ويصدقون ، لأنهم كانوا يؤمنون . علمت المساكين أن فى الحياة ما هو أثمن من الذهب ، وأسمى من السلطان ومن القوة ، وأن فيها من اللذة ما هو فوق متعة الأجسام ، علمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة وعن كل متعة إذا هم آمنوا بما هو أسمى وأعلى ، فى حين أن الدبى المغرور من أمثال تيمور يقضى حياته أسيراً فى قيود

من الطين العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها .

وكانت الأوقات التى قضيتها مع تلاميذى فى هذه الحلقة أحب العبادات إلىّ . وجدت فيها قرة العين، وفزت فيها بمجمع اللذات . فإذا ما انصرفت بعد ذلك إلى دارى أقبلت على أوراقى وكتبى أقرأ وأكتب وجعلت ما كتبته وقفاً على من يطلب العلم قرباناً إلى الله سبحانه الذى علَّم بالقلم .

ولكنى لم ألبث أن صدمت صدمة بددت آمالى .

كنت يوماً فى مجلسى إلى جوار السارية أناجى خفى الأسرار فإذا بى أحس شخصاً يقف عند رأسى ، ويضع يده على كتفى . فالتفت نحوه لفتة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بى ، أو فقيراً جاء يقصدنى ، فإذا بى أرى فتى أسمر فى حمرة ، قد أمال قلنسوته إلى يمين ، وأبدى من تحتها طرة تلمع فوق الجبين . وقد أطال عارضيه . وزجج حاجبيه ، ولف حول وسطه منطقة حمراء من الحرير ، فوق ثوب أصفر من ديباج ، وهو قصير بدين ، يدرج كالدحروجة ، ويتمايل تياهاً وينظر متحدياً .

فقلت له لأصرفه عنى : « هداك الله إلى سبيلك » .

فقال وقد كشر عن نابه : « أما تعرفنى ؟ » .

فنظرت إليه فاحصاً ، وصعدت فيه بصرى كرّتين ، فلم أتبين من يكون ولم يكن لى عهد برؤية مثله ، فضاق عند ذلك صدره وصاح بى : « أنا صاحب الباب وحاجب الحجاب ! قم إلى القاضى ولا تبطئ عليه » .

فوقع قوله منى موقعاً شديداً . فالقاضى سيد من أصحاب الخمسين ،

وقد عرفت نفسي عزوفاً عن مجالس العظماء ، فاستعذت بالله من الغرور ، وظننت أن سيده قد سمع بي ، وعرف ما أقدمه للعلم فى سبيل الله ، فأحب أن يظهر لى تجملا ، أو يبعث فى طلبى تقريباً وتلطفاً . وكنت لا أحب أن أفتح قلبي للغرور فإنما الأعمال لله وحده ، وما كنت لأبتغى بها عند الناس رياء . وعزمت على أن أجعل بيني وبين السلطان سدًّا ، وهممت أن أرد الحاجب ردًّا جميلا ، وأبعث معه إلى السيد العظيم دعوة خير أرجو أن تكتب له فى صحيفته .

ولكن ما كان أشد عجبى عندما ناداني الفتى متجهماً ، وأمرنى فى جفاء أن أسرع إلى المجلس فإن لى فيه شأناً .

ولم أفهم أى شأن يكون لى فى مجالس القضاء ، وليس لى فى جانبولاد ما أنافس الناس فيه . فلم تكن لى تجارة ولا زراعة ، بل هى صلاتى ودرسي ، وكتابي وورقي ، وإن كان لى رزق فيها فما قسمه الله لى من عطائه لست فيه شريكاً لشريك أو عميلا لعميل . فقلت للحاجب فى هدوء : « هداك الله يا ولدى. لقد أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم» . ثم هممت أن أعود إلى درسي ، ولكنه نظر إلى مغضباً ثم صاح بي حانقاً : « أيها الرجل قم إلى القاضي فإنه ينتظرك ، لينفذ فيك ما يجب عليه أن ينفذه من حكم العدل » . فنظرت إليه وإلى حلقة الدرس ، ونظر التلاميذ إليه ثم إلى ، وطال النظر من بعض إلى بعض ، حتى نفد صبر الحاجب وكان قويًّا فتيًّا يلمع رونق الشباب فى وجنتيه، فتقدم نحوى عامداً كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسراً . فلم أجد بدًّا من القيام طائعاً ، فهؤلاء

أتباع السلطان لا يعرفون تجملا ولا ترفقاً . ولما رأيت من تلاميذى بوادر الغضب أشرت إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتباً ، فما ينبغى لمن كان مثلى إلا أن يطيع ولى الأمر إذا دعاه .

وسرت إلى مجلس القاضى ، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث الأيام والشهور ، لعلى أذكر لنفسى سبباً مما يجر إلى ساحة القضاء فلم أجد شيئاً أعرفه ، وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول . ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله فم ضب وعينا أرنب ، يخيم عليه ظل الهيبة ، وترنق فى عينه الصرامة . ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين . ورأيت ثيابه من الدمقس ، وتحته طنفسة من الإبريسم الحر ، وقد رفع فوق رأسه الدرفس ، ووقف الأتباع من حوله خشوعاً ، يسلون السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع . فوقفت حيناً أنظر فى ارتياع ، وأترقب حركة فمه المدبب ، الذى يضم بين شفتيه لساناً فيه مصير الناس من سعد وشقاء ، وأتأمل عينيه الحاويتين ، ومنهما يطل القضاء . وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام ، من سجن وتعزيز ، وغرامة وتشهير ، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من عثرات المقادير ، وتقدمت نحوه باسماً ، وسلمت عليه محتفياً خاضعاً ، ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع درسى وروع تلاميذى ، فإذا به ينظر إلى فى جمود ، ويرفع يمينه فى جفاء ، ثم قال بصوته النحاسى : مكانك أيها الرجل ! . .

وكأن الأرض قد مادت بى عند ذلك ، أو كأن السماء قد مارت وتداعت ، وعقل لسانى عن النطق ووقفت أنظر إليه وعيناى تطرفان ،

وأذناى تطنان . ولا حاجة بى إلى ذكر ما قال لى كله فقد كان مجمله أنى جئت إليه متهماً بأنى شربت الخمر وقارفت عظيم الإثم ، ونادمت وفاكهت ، وأعنت على المنكرات ، وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات . وقد شهد على بذلك من كنت أنادمه ، وسمعه منه الشهود العدول ، ورواه عنهم الشهود العدول . ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة وأن يبالغ فى التدليل ، حتى لا يزل فى حكمه ، فقال إنه قد بعث فى أثرى العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبى الفارس فى الليل ؛ وأخرج منه بعد حين فى هيئة من لاشك فى امتلائه بالشراب ، إذ كنت أسير مطرقاً ، وأجرر رجلى خائراً ، وأدخل إلى دارى ، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذيول ردائى .

فذكرت عند ذلك ما كان . جازى الله « طوطاط» فكم من مصاب ينزل بالمرء من وراء عبث ، وكم من دواه جرها على الناس حديث إفك . منذ تلك الليلة التى نادمت فيها « طوطاط» لم يبق فى جانبولاد مجلس شراب لا يذكر فيه اسمى ، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث بفكاهتى وظرفى . فكنت أوصف بحسن المنادمة وطيب المحادثة ، والأدب عند الشراب والصبر على عربدة الصحاب ، على حين كنت فى المسجد أحلق مع تلاميذى فى السماء ، وأتقرب إلى الله بفعل الخيرات وخدمة الطلاب ، وأعكف على التأليف والتصنيف والعبادة والتسبيح .

وتقدم القاضى إلىّ بأن أدفع التهمة عن نفسى إذا استطعت ، فإن العدالة تناديه أن يكشف عن جرمى ، وأن يحمى الناس من ريائى ، ولن

يزال بى حتّى أتوب بين يديه ، بعد أن يوقع على العقوبة التى أستحقها ، ثم يمنعنى بعد ذلك من مخالطة الطلاب ، وتلويث المساجد التى لا ينبغى أن يدخلها إلا المطهرون . فلم أملك من القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولم أستطع غير التسبيح والحوقلة ردًّا ولا دفعاً . ووقفت مبهوتاً كأن صخرة قد هوت على رأسى فشدخته ، ونظر القاضى إلى من تحت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدرى ، لينظر ما أخفى وراء جدرانه من دليل على جرمى . ومن العجيب أننى بعد حين أحسست فى نفسى تبدلا ، فزالت عنى الحيرة وامتلأ قلبى ضحكا ، حتى كدت أقهقه فى وجه السيد العظيم ، وأنقض على عثنونه الطويل فأهزه وأجبذه ولكن نظرته كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة ، ونظرت إلى الشرط والأتباع وهم يتربصون بى أمره ، وينتظرون على إشارته ، وبعد لأى نطقت فقلت : لقد فجأنى هذا الأمر يا سيدى ، فيسر لى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى . وكان حرسه الله يعرف أصول القضاء . فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء ، ولم يسرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعذار ، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فغداً .

وذهبت إلى الدار أحدث نفسى حائراً بائساً ، لا أرى أمامى إلا همًّا وظلاماً . وضاقت جانبولاد فى وجهى ، حتى فكرت فى الهرب منها متسللا . وهاجمتنى المخاوف تعذبنى ، فلم أجد منها خلاصاً إلا بأن أقوم إلى وضوئى ، لعلى إذا اتجهت إلى صاحب الكون وجدت عنده السلام .

١٥

أتى الليل هاجماً على بظلامه فزادنى همًّا على همى ، وشملتنى رهبة لا أستطيع أن أصفها . فقمت إلى صلاة المغرب ، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب طرقاً ، فزاد اضطرابى خوف أن يكون ذلك نذيراً بمصاب جديد ، فقد خيل إلى أنه لم يبق لى فى هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها على مع الساعات . وفتحت الباب فى حذر ثم نظرت :

« أهو أنت أيها الحبيب ؟ » . خرجت منى هذه الصيحة وأحسست أن شعاعاً من النور أضاء أمامى ، عندما رأيت صاحبى وتلميذى كمال الدين .

جاء صديقى إلى دارى من قبل فلم يجدنى ، وذهب إلى مجلس القاضى فلدفع عنه دفعاً قبيحاً ، فعاد إلى دارى بعد أن قضى حيناً يهيم فى طرق المدينة مهموماً من أجلى . حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلّت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفى . لقد اطمأننت عند ذلك على أنى أجد إلى جانبى رجلا يصدقنى إذا تحدثت ، ويواسينى إذا تعذبت ، ويعيننى بمؤانسته إذا تحيرت . ولما دخلنا توضأ صاحبى وصلينا معاً ، ثم جلسنا نتحدث وأفضيت إليه بكل قصتى ، وشكوت إليه عثرتى . ولله هو من صديق ! لم أجده يتزعزع أو يشك ، بل كان مصدقاً واثقاً ، وجعل يذكرنى بالله وما هو جدير به من نصرتى وجلاء غمتى ، حتى أخجلنى من نفسى . فما كان لى أن أبتئس أو أخشى لأن الله عالم بأمرى وهو معى ولن يخذلنى .

وأشار على أن نذهب إلى القاضى لعلنا نحدثه فى خلوة ، فإنه إنسان

وإن كان من أصحاب الخمسين ، ولا بد لحجة البرىء أن تظهر وإن ساءت الظنون . فقمنا معاً وكان وقت العشاء قد اقترب ، فقلنا ندرك الشيخ فنصلى معه جماعة ، ونتحرم إليه فى كنف الصلاة . فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرساً كثيراً ، من شرط وحجاب ، وأعوان وغلمان ، فلما رأونا نقصد الباب نظروا نحونا شزراً ، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون . فتجرأ صاحبي وتقدم فسأل عن الشيخ ، وطلب أن يسمحوا لنا أن نراه ، وتعلل بالعلل فقال : « إن السيد يهم الساعة بالصلاة ، ونحن نحب ألا تفوتنا بركة الائتمام به » . فضحك أحد الغلمان ثم نظر إلى رفاقه فتضاحكوا ، وعاد فنظر إلينا واحداً بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، ثم مد يده إلى جبتى ووضع يده فى خروقها ، وقال وهو يضحك : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » فجذبت جبتى منه فى شىء من الغضب وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسلا يقول : « إن الشيخ حرسه الله لا يضن على مثلنا أن نصلى معه . فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته » . فقام أحد الحجاب ودفعه فى غلظة وقال له معنفاً : « اذهب إلى المسجد إن شئت الصلاة ، وأما إذا أردت الاحتيال على الصدقة فإننا لا نخدع عن مثلكما » . فملأنى الغيظ وجرحت عزتى ، وكدت أثور لولا أن جذبنى كمال الدين وهمس فى أذنى : « ليس لنا من حيلة إلا الذهاب » .

وسرنا معاً مطرقين حتى بلغنا المنزل فصلينا ، ثم جلسنا نقرأ الأوراد ، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبى حتى حل فيه السلام ونسيت كل ما كان .

وكأن وحياً قد هبط على فألقى فى روعى أن أذهب وحدى إلى القاضى ، وأحسست فى نفسى يقيناً أنى إذا ذهبت إليه لم يستطع أحد أن يقف فى سبيلى . فقمت واستأذنت صديقى ، ورجوته أن يصبر حتى أعود إليه ، وسرت قدماً برأس مرفوع وقلب يجيش ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى . وما كان أشد عجبى إذ وجدت الباب خالياً ليس عليه حراس ولا غلمان . فدفعت المصراع فانفتح ، وأدخلت رأسى من فرجة الباب فلم أجد أحداً وراءه ، فدخلت ورددت المصراع ، وكان الظلام كثيفاً فسرت أتحسس مواضع خطواتى ، حتى اجتزت مدخل الفناء ، فوجدت باباً آخر فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من فاكهة ونخل وريحان ، وكانت الدار تشرف عليه محيطة به ، وعلى نوافذها مشربيات بديعة تبدو أمام العين مبهمة فى الضوء الخافت المنبعث منها . وسرت فى غير تردد وأنا أتعجب أن يكون القصر خالياً صامتاً . فأين حراسه ؟ ولم أخفيت هكذا أنواره ؟ إنها تبص بصيصاً من وراء السجف تنم عن قناديل مئات تزهر من داخل الأبهاء ، وصعدت فى السلم على حذر حتى انتهيت إلى مدخل البهو ، فما هذه الأصوات المختلطة ؟ كانت أصوات الضحك والغناء تتجاوب ويحملها الهواء فى أمواج متعاقبة ، فتخف حيناً ثم تعلو حيناً ، كأنها آتية من عالم بعيد . وزاد بى العجب وقويت فى نفسى رغبة الاطلاع ، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعاً ففتحت باب البهو ، فإذا قاعة يضل فيها البصر ، طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها بخالص الحرير ، وأحسست تحت قدمى طنفسة لينة ، تغوص بى كلما

خطوت ، ورأيت فى صدر القاعة باباً يأتلق النور من ورائه ، وتفوح العطور من قبله . فكانت رائحة المسك تتضوع منه مختلطة بأبخرة العود ، وكانت الأصوات الناعمة يمازجها صوت أجش له رنين النحاس . وسمعت رجلا يضحك ضحكة ناعسة بين كركرة صداحة ، كأنها من سجع الطير . وعادت الموسيقى فكانت سحراً وفتنة ، فلم أستطع إلا أن أقف مكانى ، وقد غلبنى طربها ، فقد كنت منذ صباى مولعاً بالغناء . وكدت أنسى أننى دخلت القصر خلسة ، وأنه لا ينبغى لى أن أطيل الوقوف ، ثم أفقت بعد حين وعادت إلى نفسى ، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب . فما للقاضى والغناء ؟ وما هذه الأصوات الناعمة التى تسحر الهواء ؟ وفكرت فى العودة خاشياً من عاقبة هذه الجرأة . ولكن شيئاً فى قلبى دفعنى فلم أستطع خلافه ، ثم رأيت باب القاعة يفتح من أقصى أركانها ، فخفت أن يرانى أحد فأسرعت إلى أقرب ستار فتكمشت وراءه ، وجعلت أطل برأسى من مخبئى . فرأيت غلماناً وجوارى يحملون صحافاً وكؤوساً ، ثم اقتربت من موضعى فتاة مثل فلقة القمر ، تخطر فى أثواب من الحرير الأحمر والأصفر ، فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة ، ثم أغضيت وقلت : سبحان من خلقها وسواها . وكتمت أنفاسى حتى بعدت عنى ، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثياباً وتضعها على أريكة ، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة ، كأنها مهاة فى الصحراء ، أو ريم شارد من كناسه . ولما بعدت عنى أطللت برأسى وراءها حتى فتحت الباب ، ودخلت منه ، فنظرت من الفتحة فإذا فى صدر الحجرة قلنسوة حمراء ، ومن تحتها السيد القاضى حرسه الله

فى هالة رائعة المنظر ، من مؤنسات أوانس ، وندامى صباح . ورأيت أمامه طاسات من المدام ونقولا وفاكهة وأزهاراً ، وقماقم من عطور ، وأحقاقاً من غالية ، فكدت لا أصدق عينى ، وثارت الوساوس فى نفسى ، وتساءلت أفى يقظة أنا أم فى منام . وجعلت أقرص كفى وأضرب بيدى على وجهى ، حتى تحققت أننى فى صحوة ، وأننى أرى السيد القاضى بعينه وذقنه وفصه ونصه . فقلت أهذا هو الذى يحاكمنى ، ويقتص للعدالة منى ؟ وامتلأت غماً وهماً ، فقد علمت أن أقسى القضاة فى إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها . وجررت نفسى والألم يعصر قلبى ، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجى ، تاركاً إلى الله قضائى . ومررت فى سيرى بالثياب التى ألقتها الفتاة على الأريكة ، وكانت تبرق فى الضوء المنبعث عليها من بعيد ، ونظرت إلى ثيابى نظرة قصيرة فرأيت جبتى وقميصى وقد حال لونهما وانكمشت أكمامهما وتفرزت جوانبهما ، وتهتك أعلاهما وأسفلهما ، فعذرت الحجاب فى منعى ودفعى ، واستقر رأيى على أن أقترض ثياب الشيخ قرضاً حتى أستطيع إذا لبستها فى الصباح أن أجد إلى بابه سبيلا . وليس على من بأس إذ أنا اقترضتها عارية ، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة . وخطفت الثياب وسعيت بها جرياً ، ثم قفزت فى رحاب القصر قفزاً ، حتى بلغت الفناء ، وخرجت أعدو حتى بلغت دارى وأنا أتلفت إلى ورائى . وكان صاحبى كمال الدين لا يزال فى حجرتى يغط فى نومه ، فلم أشأ أن أوقظه ، فإن متعته فى الصباح تكون أعظم إذا رآنى أطلع عليه فى بريق تلك الثياب .

ولما ذهبت فى الصباح إلى مجلس السيد الشيخ ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان ، فقام الحجاب يسارعون . وحنوا لى الهامات وهزوا لى القلانس ، وأطرقوا لا ينظرون إلى وجهى ، وفتحوا الباب على مصراعيه ووقف بعضهم عن يمين والبعض عن شمال ، حتى دخلت . وكان السيد فى صدر المجلس ، فوقع بصرى عليه ووقعت عينه فى عينى . ثم رأى ملابسه تلمع على ، وعرف أننى رأيت كل شىء . ففغر فاه كأنه يهم بالصياح ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه ، ثم تحرك قائماً يبرق بعينيه ويختلج فى خفيه ، وأقبل نحوى فاتحاً ذراعيه ، وانطلق فى تحية طويلة مؤهلا مسهلا مرحباً مستبشراً ، حتى تلاقينا فى وسط القاعة ، فضمنى إلى صدره ضمة مودة ، وترك كل من حوله وأقبل على فأجلسنى عن يمينه ، وأخذ يحيينى ويؤنسنى ، حتى هدأ روعى ، وذهب عنى وجلى ، وصاح فى حجابه أن يسرعوا فى خدمتى ، وأمرهم أن يعدوا لى قهوة وماء ورد لأستروح وتذهب عنى بهرة السير . وما زال بى حتى شرح صدرى وفك عقدة لسانى ، وبدأت أقص عليه قصتى فى قول مبين وحجة ظاهرة ، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه شيئاً ، ولم أحاول أن أعتذر ولا أن أستتر ، حتى أفضيت إليه بكل ذات نفسى ، فتبسم حرسه الله وأخذنى من تحت إبطى ، وانتحى بى جانباً وجعل يسألنى عن تفصيل أحوالى ، فلان قلبى له وزالت حفيظتى عليه ، وهممت أن أعتذر إليه من أخذ ثيابه ، وأعده بإرجاعها إليه . ولكنه لم يمكنى من المضى فى حديثى ، بل عانقنى عناق الصديق ، ومد يده فدس فى كفى كيساً ثقيلا ، فتحته فيما بعد فوجدت

فيه مائة من الدنانير صافية وافية . ولما استأذنته آخر الأمر فى الانصراف سألنى هل جئت إليه راكباً ، وهل حملنى جواد أم سعت بى إليه أتان ، فنظرت إليه فى خجل وقلت :

— لقد كنت دائماً أسير على قدمى منذ بعت صديقى .

فضحك حتى كاد يهتز عن وقاره وقال : أكنت تركب الصديق ؟

فقلت له باسماً : هذا صديق كان لى فى وطنى ماهوش ، وكان الناس يسمونه حمارى ، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس فى شتمه.

وخفق قلبى عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقى المسكين الذى اضطرتنى الحاجة فى وطنى إلى بيعه ومفارقته ، وأطرقت حزيناً .

فقال لى السيد : لا عليك أيها الشيخ المبارك . فما كان مثلك ليسير فى جانبولاد راجلا . ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه ، وأمره أن يعد لى بغلته الشهباء . ثم نظر إلى فى عطف وقال : هى بغلة فارهة ، مباركة الخطوات ميمونة الروحات والغدوات ، بارك الله لك فيها ، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها وأن تذكرنا فى صلاتك .

فسرى عنى كل ما كان من همى ، وأحسست للسيد حرسه الله شكراً يملأ قلبى . وسرت عنه راكباً بغلته لابساً ثيابه وعمامته . وكنت على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله ويغفر له ذنبه .

وكان أهل جانبولاد ينظرون إلى وأنا سائر ، فإذا قربت منهم تواثبوا لتحيتى ، وأشار البعيد منهم إلى بالبنان . وقضيت سائر اليوم فى دارى عاكفاً على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحاً .

١٦

اتسعت بعد ذلك حلقة دروسي وضاق بها المسجد حتى كادت تمتنع على الناس الصلاة فدعانى هذا إلى أن أتخذ داراً خاصة جعلتها مدرسة أعلم فيها الناس كباراً وصغاراً .

وكنت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل . ولست أدرى لعمرى ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدعى مثل هذا الزعم ؟ إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة فى استخدام وقتهم الفارغ ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم ، وتميل بهم وتشرد . أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا فى العمل ، العمل الدائم وإن تغير وتنوع . ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل فى سواه . وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته فى دروسى وأحاديثى .

جعلت أعلم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده ، وإن كانت مسرة مباحة بريئة . فالذى يقضى وقته فى نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان ، والذى يسلى نفسه إنما يبلغ هذه المرتبة عينها ، إلا إذا كان فى نزهته وفى ترفيهه إنما يتحفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد . وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة فيحتالون على قتلها هم الطفيليون على مائدة الحياة . هؤلاء يطردهم الله من رحمته وإن كانوا لا يفارقون شراً . لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير ،

وقد بدا لى بعد حين من مقامى فى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال . فإن أسمى اللذة فى الخير لا يجدها من يتأمله بعقله ، بل من يباشره بعمله . فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذى ، وتحاملت فيه على نفسى مع ضعف حولى وقلة ذات يدى ، ولو كنت من أصحاب الأعلام لما احتجت إلى معونة من غيرى ، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور ؟ ففكرت أن أتكفف الناس أطلب منهم المعونة على مقصدى . ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت؛ فقد عجزت مرة بعد مرة ولم تفدنى ملابس القاضى شيئاً فى جمع المال . وقد يجود الناس بالتحية وحلو القول ، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسعى فيه . فأطلت التأمل فى هذا الأمر وتحدثت فيه كثيراً مع تلاميذى . فقال لى كمال الدين يوماً : « إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع . فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة ، أو كسوة العارى الذى يرتعد من شدة البرد ، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعياء ؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النار أن تطفأ بالرجاء ، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعداً إلى القمم » . فكانت تلك كلمة صريحة صارمة ألقت اليأس فى قلوبنا . ولكنه أردف قائلا : « من شاء الخير فليتدسس إلى الشهوات » .

فنظر تلاميذى بعضهم إلى بعض وتصايحوا : « نتدسس إلى الشهوات؟ هذا مستحيل . وما جدوى الخير إذا كانت الشهوات سبيله ؟ » . فقال كمال الدين مترفقاً : « أقصد أن نتدسس إلى المسرات ! » . فقال التلاميذ :

« نعم . أما هذه فلا بأس بها » . وأخذنا ندبر الخطة المحكمة .

بالاختصار جعلنا نعقد فى المدرسة كل أسبوعين مجلساً للهو ندعو إليه علية جانبولاد وأوساط أهلها ، وكنا نحشد فيه المغنين وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجراً ، فكنا نأخذ من البعض ذهباً ومن البعض الفضة ، كل على قدر وجاهته . وكنا نميز أصحاب الذهب بمقاعد فى الصدر ، فكان هذا كافياً لأن يبذل الجميع ذهباً حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر .

وكان نجاحنا منقطع النظير فإن علية جانبولاد أسرعت إلى التلبية ، ولم يرد أحد منهم دعوتنا . وانهال علينا المال انهيالا . . . فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسو المساكين ونعين المرضى على الدواء ، ولكننى مع هذا النجاح كنت أحس فى قرارة نفسى أننى أخطأت سبيلى ، وأننى أحيي ألف سيئة فى سبيل حسنة واحدة . وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهاً إليه ؟

وكنت أحس أن الله لن يرضى عن عملى ولن يقبل خيرى . ولم ألبث أن وجدت عقوبة الله أمامى . فما كان الله ليبارك فى خير جاء عن سبيل الشهوات .

١٧

عاد تيمور إلى جانبولاد بعد أن قهر الملوك وقتل الجيوش وأتى معه بعدوه بايزيد العثمانى فى قفص من الحديد ليراه الناس ويعتبروا ويمجدوا فى الأرض اسم تيمور .

ولم تطاوعنى نفسى على الخروج مع الناس لرؤيته . فما حاجتى إلى رؤية منظر شهدت مثله فى الغابة من قبل ! وزاد من زهدى فى رؤيته ما سمعت عن منظره ، فقد قيل إنه أشل اليد والرجل ، تعترض وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحاً غائراً يجعل نظرته كنظرة الفهد . فآثرت الذهاب إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى عنده اليوم ، لأن مدرستى كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذى كما خرج الناس لرؤية موكب المنتصر . ولست ألوم أحداً منهم على ذلك فإنه من طبع الإنسان . كان الإنسان منذ القدم يعبد الأقوياء القساة .

ولم يكن كمال الدين وحده فى الدار ، بل كانت معه أخته الصالحة الكريمة « نجوى » . نجوى الطاهرة البتول التى كانت لأخيها كل ما فى الحياة .

كانت شابة فى البضع والعشرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الخمسين ، وكنت كلما نظرت إليها تذكرت علية ابنة علاء الدين .

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الوضاح وصفحة وجهها الوضاء .

حتى لقد كان يخيل إلى أحياناً أنها هى التى رأيتها فى الهودج المزركش فى موكب السلطان فى ماهوش .

قضينا اليوم معاً وكان يوماً من الربيع . والربيع ما زال منذ الصبا يهزنى ويطربنى ، ويعترينى فيه خشوع وتشملنى فيه رقة ، كأن زهره يتفتح فى قلبي ، وكأن طيره يتغنى فى حنايا صدرى . كان الربيع دائماً يجمعنى بالخليقة ويمزجنى بالوجود ويوحى إلى أسمى المعانى . ولكن الربيع فى ذلك اليوم كان أكثر سحراً ونشوة .

سرت فى الحديقة الصغيرة أنقل طرفى من عود إلى عود ومن زهرة إلى زهرة ، على حين جلس صديقى فى ركن منها يصلى ويقرأ الأوراد . وذهبت « نجوى » إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن لأخيها . وقد وجدت فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة إذ كانت كل ورقة تملأ صدرى سلاماً وشكراً ، وكل حشرة أفحص بنظرى أعضاءها وحركتها تملأ عقلى علماً وخضوعاً . وقضيت فى جولتى حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق فى الآفاق وأهيم فى الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء الله ، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لى عالماً لا يقل عن الفضاء الفسيح فى روعته وجلال أسراره .

رأيت عنكبوتاً ضئيل الجسم لم أكد أتبينه فى ضوء الصباح ، ورأيت بيته الواهى وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ولا يستطيع اللسان وصفها ، ورأيت المخلوق الصغير يتحرك ويلقى من فمه خيطاً لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شعاع من

الضوء ، فمددت إليه أصبعى فعلق به وإذا بالعنكبوت يتعلق بخيطه فى طرف أنملتى ويهتز فى الهواء مترجحاً ، ثم رأيته يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعى ، فهززت يدى فإذا به يسرع فيمد من فمه غزلا رقيقاً تطاول حتى صار على أكثر من ذراع منى . فملأنى هذا الخلق البديع عجباً . هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب لا تكاد العين ترى لها جرماً ، ومع ذلك فله أرجل وأطراف وفيه حواس لا أدرى عددها ، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآلة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذى لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه . كل هذا قد اجتمع متناسقاً فى نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها ، فسبحانك يا ألله !

وانتهى صديقى من أوراده وجلس ينتظرنى . وكانت « نجوى » قد جهزت طعاماً للإفطار ، أتم الله عليها نعمته وأسبغ عليها فضله ، فدعتنى إلى الطعام . وما كان أطيبه ! ثم قضينا سائر اليوم فى درس وتأمل وحديث طيب وصلاة ، وكان مجلسنا يفيض بنور الله ، لم أحس فيه أننى معلم ألقى الدروس ، بل كنت أتعلم من صاحبى أكثر مما كنت أعلمهما . كانت « نجوى » إذا تحدثت فتحت فى قلبى ينابيع من الفيض فأغرق فى تأملى حيناً ثم أطفو وقد امتلأ قلبى يقيناً . ولست أدرى ما ذاك الذى كانت تحدثه فى بنظراتها الوديعة . كانت تستمع لما أقول وتنظر إلى بعينيها الواسعتين الحالمتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بى أسمع معنى لم يجل من قبل بخاطرى . وقد تنظر إلى صامتة فإذا بى أرى عالماً خفياً من الأسرار ينفتح أمام عينى .

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملأ الأعلى ، فإذا هى نطقت أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى لأن تفيض على من النور القدسى فيضاً غامراً .

ولما ذهبت إلى بيتى مع وسط الليل كنت أحس أننى لا أسير فوق الأض بل تحملنى أجنحة الملائك على متن الهواء ، حتى كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته وبطشه وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمى .

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسى كبير لم يكن فى غرفتى سواه إلى جوار النافذة المطلة على الفناء ، وأشعلت المصباح ولم يكن به سوى القليل من الزيت ، فجعل يتراقص ويطقطق ولا يكاد نوره يبلغ زوايا المكان . فبدت الأركان بعيدة كأنها تنتهى إلى الأفق فى طرف السماء . وأغمضت عينى وأنا جالس على الكرسى لا أريد نوماً ولكنى وجدت فى الغمض راحة أنست إليها . فأخذتنى سنة من النوم فتحت عينى بعدها على صوت سمعته ينادينى . فتلفت حولى ثم نظرت إلى النافذة ورائى فرأيت شخصاً واقفاً قد وضع مرفقيه على حافة النافذة واتكأ بذقنه على كفيه ، فوسعت عينى لأتبينه فى الضوء الخافت فإذا به صاحبى « طوطاط » وبادرنى قائلا : « أين كنت بالأمس ؟ » .

فقلت له منكراً : « وما سؤالك عن هذا ؟ » .

فنظر إلى معاتباً وقال : « لم تذهب إلى لقاء تيمور . وقد سأل عنك » .

فصحت فى فزع : « تيمور يسأل عنى ؟ » .

فقال جاداً : « وما تعجبك من هذا ؟ » .

فقلت : « إنه لم يرنى » .

فقال ضاحكاً : « ولكنه يعرفك . ألا تفهم ؟ إن تيمور لا يخفى عليه علم بأحد » .

فأزعجنى قوله وداخلنى منه هم زادنى قلقاً ، فأطرقت صامتاً أفكر فيما عساه ذكرنى به . فقرب « طوطاط » منى وهمس فى أذنى « احذر ! » .

فقلت له مبادراً : « مم أحذر وما بى ما أحذر منه ؟ » .

فقال جاداً : « ألجم لسانك هذا . كفاك ما صنع بك » .

فنظرت إليه فى دهشة وقلت : « لسانى أنا ؟ » .

فقال لى فى رفق : « نعم . فما هذه الدروس التى تلقيها ، وما هذه الكرامة الإنسانية التى تتحدث عنها ؟ ثم ما هذه الأغانى التى توسع لها صدر مدرستك ؟ وماذا عليك إذا شئت الغناء أن تجعله فى بيت رجل مثلى ليكون طربك فى ستر وتجمل ؟ » .

ثم غمزنى فى ذراعى هامساً : « لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم ، فقد أمر تيمور بإغلاقها » .

قال هذا ومضى عنى مسرعاً .

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقض على ، واسودت الدنيا فى عينى ولم أدر ماذا أصنع . وشعرت عند ذلك أول مرة أننى واقف وجهاً لوجه أمام تيمور ، وتمثلت لى كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكنى . لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن ،

وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه ، ولكنى عند ذلك رأيت نفسى وضعفى أمام سلطانه الهائل ، فخيّم اليأس علىّ وشل حركتى .

فقمت منتفضاً عن مقعدى ، وقد شعرت بأنه لم يبق لى فى جانبولاد مقام ؛ فإنى لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه .

وقمت إلى الصلاة واتجهت إلى الله أن يسدد خطاى وأن ينقذنى من الوساوس ، فلما فرغت منها عدت إلى نفسى أحاسبها حساباً عسيراً . فهى التى زينت لى اتخاذ دار العلم مسرحاً للهو ، وهى التى جعلتنى أفرط وأسِفّ فى سبيل الذهب . وامتلأ قلبى سخطاً على ذلك المعدن الخسيس الذى أضلنى فإن الله لم يجعل سبيلا إلا على من ظلم وأخطأ . وأقبلت على صلاتى أستغفر فيها ربى من ذلك الإثم الذى وقعت فيه . وجعلت أناقش نفسى وأحاجُّها فى الهجرة وترجحت بى الميول بين المشقة وبين الكرامة ، ولم أستطع أن أهتدى إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطتين مرًّا . وفيما كنت فى حيرتى برقت لى بارقة من الأمل فألقى فى روعى عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه . بدا لى أن الهجرة نوع من الهروب وأننى لا ينبغى لى أن أهرب حتى أبلى فى سبيل الحق بلاء ألتمس فيه العذر لنفسى ، فإذا اضطررت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطاً أو لوماً . فعزمت على أن أقيم فى جانبولاد وأن أجاهد فى سبيل الحق ما استطعت ، وأن أقابل الجبروت بالتحدى ، وأرفع رأسى كريماً لا أحنيه لقوة ظالمة ، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت

عذرى . وامتلأ قلبي يقيناً بأنني لن أخشى قوة الطغاة . فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان .

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى فى جانبولاد ، وأن أضع نفسى حيث كان يليق بها أن تكون . فإنى لم أكن أقل من أصحاب الريش والأعلام . بل إننى كنت لا أرضى بأن أكون مساوياً لهم . فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم ، فلن أسمح بأن أكون دونهم فى شىء . عزمت على أن أدخل نفسى قسراً إلى المكان الذى يليق بى . وما كان لمثلى إلا أن يكون فى المحل الكريم . وما كدت أستقر على هذا الرأى حتى أخذت فى الاستعداد له واجتهدت فيه اجتهاداً كبيراً .

١٨

كانت الأعلام فى جانبولاد لا ترفع طبعاً إلا إذا ملأ الناس قدوراً من الذهب بعددها ، ولكن مالى وللذهب ؟ قد رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفاً عليهم ، فكانت النتيجة أن الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شيء ، إذ لم تجعل لها قيم فى خطتهم المرسومة . وما كنت لأقيد نفسى بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده ، ولا أنظر إلا إلى جوهر الأشياء . فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول فى القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالهما مما ضاع قدره فى جانبولاد .

ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأيى على أن أستغنى عن الذهب وأتخذ لنفسى معياراً رمزياً أجازى به الأفعال بما تستحقه . والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن الأرض ، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين ، وهو لا يستحق كل هذه العناية التى يحيطونه بها ، إذ هو لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ، وشربة واحدة من الماء فى الصحراء تكون أغلى من كل ذهب الأرض . وإذا كان المقصود إنما هو وضعه فى القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القدور شيء إذا ملئت بشيء آخر كالحصا أو الحجارة ، ولن تكون قدر من الخزف خيراً لأن واحدة مختومة على ذهب والأخرى مختومة على حجارة .

فعمدت إلى قرطاس كتبت عليه أنواعاً من العمل ، وكتبت أمام كل منها ما يستحقه من وزن الذهب لو أنصف الناس ، ثم عمدت إلى قرطاس

آخر كتبت عليه أنواعاً من النقص أو الظلم أو أعمال السوء ، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدراً بوزن الذهب . وعزمت على أن أحاسب على أعمالها جميعاً فأقدر ما قدمت من خير وأجعل لكل عمل من ذلك وزناً ألقيه فى قدر — أقصد وزناً من الحصى بدلا من الذهب . فإذا ما امتلأت قدر ختمتها ورفعت على دارى علماً ، وكلما ملأت أخرى وختمتها رفعت علماً آخر .

ولم أنس محاسبة نفسى على ما تجترم من الذنوب ، فعزمت على أن أنقص من القدور ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها ، حتى لا يبقى فيها إلا وزن ما هو باق لى من الحسنات الخالصة وكنت فى ذلك متحرجاً متأثماً ، فإن الله قد وعدنا معاشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الإنسانية أن نجزى على الحسنة بعشرة أمثالها ، وألا نجزى على السيئة إلا بمثلها ، فبالغت فى الحيطة وجعلت الحسنة والسيئة سواء فى الأجر والعقوبة .

ولأضرب مثلا مما وضعت من القيم لأبين أننى لم أغال فى التقدير ، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل ، ولعيادة المريض وزن حصاة صغيرة ؛ فإن هذه من الواجبات التى لا ينبغى لأحد أن يطلب عليها الأجر . وجعلت لكتابة رسالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة ، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم وهو يعلم الناس أن الحياة تفنى ولا يبقى على الدهر إلا الخير ، وأن الظلم مرتعه وخيم ، وأن العسف لا يقيم الدول إلا إلى حين . وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا من وهب الله له من فضله . ولم يكن فى تقديرى مبالغة فإن

الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات فى المدح الكاذب ، أو فى وصف الخمر واللهو ، فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب ! لم أكن مغالياً . وجعلت لتعليم الناس قدراً كاملة — نعم ! قدراً كاملة ، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الإنسانية . فإذا خرّج المعلم رجلا كاملا أضاف به إلى الأمة ثروة لا تقدر بمال . وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته ، ولن يضيرنى أن تيمور وعلية جانبولاد لا يعرفون له قدره فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعانى العليا .

ولما انتهيت إلى ذلك أخذت فى إعداد القدور والحصى واستطعت أن أملأ لنفسى قدرين كبيرتين ، ثم عمدت إلى ثوب فقددت منه ما يكفى لصنع علمين ، فما أتى العصر حتى كان علمان أصفران بديعان يخفقان فى الهواء فوق دارى .

ثم أسرعت إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى معه ساعات فى الدرس والعبادة ، إذ قضيت اليوم كله لاهياً عن عبادتى ، وأحسست شوقاً إلى مجلس العلم ، وحمدت الله إذ بقى لى فى جانبولاد صديق أتذوق معه لذة الدرس . فلما طرقت الباب فتحت لى « نجوى » الكريمة الصالحة ، فهشت إلى وبشت ، ونظرت إليها وكأن نوراً يشع منها إلى قلبى . وخفق قلبى فأسرعت داخلا وأغضيت حتى لا أطيل النظر إليها . ولست أدرى لم كانت صورتها تنطبع فى خيالى وتعاودنى فى خلواتى وتلازمنى فى سيرى ، حتى كادت تنافس الصورة التى طويت عليها جوانحى وجعلتها رمز الكمال

والأمل : صورة علية ابنة علاء الدين .

وبعد قليل جاء أخوها ، فجلسنا ثلاثتنا نتدارس ونتعاطى أطيب الحديث وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل ، وأخبرتهما بما كان من أمرى ، فاختلفت فيه الآراء ، وراجعنى كمال الدين فى رأيى مراجعة شديدة ولكننى ما كنت لأرجع عن أمر تبين لى فيه وجه الحق ، ولم يراجعنى كمال الدين إلا لأنه خشى على من عواقبه . ولكن ما هذه العواقب التى يخشاها ؟ إن الحق واضح ولا يليق بنا أن نتردد فيه .

ثم قمت عائداً إلى دارى والسرور يملأ قلبى ، والأمل يضىء لى سبيلى ، ولم أنس أن أذكر نظرة « نجوى » عندما ودعتها . لقد خفق قلبى خفقة شديدة عندما نظرت إلى عينيها الواسعتين ، ولست أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها فى نفسى ، فإن الألفاظ تتضاءل عن وصفه — تلك الألفاظ التى لم يتخذها الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم . حقاً أنى لم ألبث أن غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ولكنى جعلت ألوم نفسى ، فما كان ينبغى لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارع وملء عينى منه . ومضيت فى سبيلى وصورتها ماثلة فى قلبى حتى غلبت على صورة علية ابنة علاء الدين . مالى وعلية ! إنها ليست إلا خيالا ، وهذه « نجوى » الطاهرة التى كنت أسمع حديثها وأستوحى العلا من نظرتها . « نجوى» التى كنت أراها حقيقة أمامى . وما يدرينى إذا أنا رأيت علية وحدثتها كيف أجد حقيقتها ؟ ألا أراها ترفع حاجبيها استعلاء وتزور عنى ولا تهش لى كما تهش نجوى الكريمة إذا لقيتها ؟

١٤٧

بلغت منزلى أخيراً ولم أنس أن أحاسب نفسى على نظرتى التى نظرتها . فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها إلى جانب ، ثم قمت إلى أحد العلمين فحططته عن دارى ريثما ييسر الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص . وأطلت فى ليلتى من القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتى . وعزمت على أن أمسك قلبى من بعد فلا أنظر إلى « نجوى » إلا كما نظر موسى إلى النور المقدس .

١٩

كانت الليالى بطيئة كأنها تزحف زحف الدبى ، وكانت النجوم تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت فى مواضعها من السماء . وكنت أقفقف من البرد فى سجنى المظلم ، ولولا الصلاة وقرة عينى فيها لتمزق صدرى من غيظه وتطايرت عنه أضلاعى . قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى البئر أو كما يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية . وقد حاولت أن أعرف ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء ، لأن السجان الفظ كان يأبى أن يكلمنى ، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون لهم جريمة.

وبقيت كذلك إلى أن أحسست يوماً على جدار جحرى حساً فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل على من بين القضبان . فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعفنى الضوء الضئيل . ثم رأيته يفتح فمه الأهتم ويهمس ينادينى ، فصعدت بصرى فيه حتى بلغت رأسه الأصلع وصحت فرحاً « طوطاط ! » فهز رأسه وهو صامت ، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان ليتعلق بها ، ثم رمى إلى حزمة بيده اليسرى وقال هامساً : « كيف حالك ؟ تشجع ! » .

فصحت به : « قل لى لم جىء بى إلى هنا » .

فقال متأثراً : « ألم أقل لك ؟ إنك لاتسمع النصح . كيف تجرأت على تزوير القدور ؟ » .

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى الأرض بعد أن قال لى : « تصبر » .

فعدت إلى وحدتى حزيناً أفكر فيما مضى بى من أيامى فى جانبولاد . وأقبلت على نفسى ألومها على الخروج من الوطن ، ولاحت لى ماهوش عند ذلك جنة نعيم . حقًّا لقد خرجت منها حانقاً لأننى لم أجد لى بها مكاناً ، ولكنى كنت أتكلم فيها وكنت أضحك وكنت أسخر ، وما كنت أرى فيها أحداً خيراً منى . بل لقد ذهبت يوماً لأسطو عامداً على أموال الناس لآخذ حتى من أرزاق ماهوش غصباً ، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا . أيها الوطن العزيز ، كنت أجد فيك الحب فجحدت نعمتك ، وهأنذا أذوق عقوبة الجحود . لقد كاد قاضى جانبولاد يحدنى فى جرم لم أرتكبه ، ولولا أننى لبست ملابسه لأصابنى العذاب والعار . ثم أغلق تيمور مدرستى مدعياً بأننى أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحاً للهو ، وهذا هو يلقى بى فى السجن لأننى زورت القدور . أى قدور هذه التى زورتها ! إن الطغاة لاتعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها . ويا ليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع إلى فريسته مكشراً صريحاً لا يعرف مواربة ولا رياء . ليتهم يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن هذا هو قانون الغابة ، ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف . ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلا .

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية ، وأيقنت أن القدور كانت سبب بليتى . فإننى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى رأيت الناس

يجتمعون حوله منذ الصباح ، وينظرون إليه متهامسين . فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته . ثم أتى الليل فجاء إلى رجل من هؤلاء أصحاب الريش ، فأخذ يسألني عن علمى وعن قدرى ، وزعم أنه لابد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه . هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدور بيده وتحقق من أنها مملوءة . فذهبت معه إلى القدر ففض ختامها ودس يده فيها ، فصحت به حانقاً : « ماذا تفعل ؟ » ولكنه كان قد سبق صيحتى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى . فنظر إلى ضاحكاً وقال لى : « ما هذا ؟ » فلم أجد بدًّا من أن أشرح له الأمر كله ، وهو يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه . فذهب عنى صامتاً بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة . فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش ، وعدت إلى غرفتى لأهيئ عشائى وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم . ولم تجدنى فيهم مساءلة ولا مدافعة ، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة .

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطء ، لا يقطع ظلامها إلا شعاع ضئيل من النجوم الوامضة الباردة ، التى لا تفتأ تحدث حديث الأجيال الفانية . ولم يكن أحد يقطع علىّ وحشة الوحدة إلا صورة « نجوى » التى كانت تلازمنى ، ثم صاحبى « طوطاط » إذ يتسلق الجدار من خارج ويتعلق بالقضبان حيناً ويهمس لى بكلمات قصيرة . وكان فى كل مرة يرمى إلى ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملبس ، وكان أحياناً يطرفنى ببعض

الفاكهة أو الحلوى فكانت إلمامته القصيرة تبعث في قلبي أنساً يقيم فيه أياماً . جزاه الله من صاحب كريم .

وكانت آخر مرة جاء فيها « طوطاط » لزيارتي فى ليلة من رمضان، وكنت أستعد للصلاة قبل الإفطار ، فقذف إلى ربطته قائلا :

– هى سنبوذجة لسحورك . صنعتها بيدى .

فخفق قلبي عندما تذكرت طعامه الذى صنعه بيده على جانب الغابة ، فما كان أشهاه من طعام ، كان القمر يضيء الفضاء ، وكان هواء الربيع طلقاً لا يشبه فى شيء هواء سجنى . وهممت بأن أشكره على بره وكرمه ولكنه قاطعنى هامساً : « تشجع . إن تيمور قد ذكرك » .

فصحت به : « ذكرنى ؟ وهل كان ذكره إياى إلا شؤماً ؟ » .

فهمس قائلا: « هذا شيء آخر . كنت عند ذلك طليقاً حرًّا » .

فصحت : « ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار ؟ » .

فهمس فى رعب : « صه ؟ ألجم ذلك اللسان . اسمع . نسيت أن أخبرك أن لك رسالة مع السنبوذجة . خطاب . أسمعت ؟ » .

ثم قهقه وقال : « لقد صرت لك عامل بريد » .

فاضطرب جسمه فى ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين القضبان ووثب على الأرض .

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها ، ولكنى تذكرت الظلام ، فألقيت بها حانقاً وقضيت الليلة مفكراً مهموماً لم أذق طعاماً ، وكانت همومى لا تفارقنى إلا إذا قمت للصلاة . كانت الأفكار

تشرد بى دائماً إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت فيها وما سمعت ، وتمثلت لى قوانين الإنسان فى مجتمعاته أشد قسوة من القانون الطليق الذى يسرى فى الغابة . وبدا لى فى ظلمة سجنى أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التى يضعها تيمور . فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن يشبع جوعه . وليس فى قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة التى يزيد عذابها على عذاب ساعة تعانيها الفريسة قبل أن تنزلق إلى بطن الوحش المفترس .

هكذا قضيت الليلة فى تفكيرى الخانق حتى طلع الصباح ، وكنت أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لكى أستطيع أن أقرأ الرسالة . فما كدت أتبين الحروف حتى أقبلت عليها أقرؤها مع ما أصاب عينى من الألم فى قراءتها على النور الضئيل . ولكنى لا أذكر سروراً كان أعظم عندى فى يوم من أيام حياتى مما أحسسته بعد أن مضيت فى قراءتها . لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم . تحركوا من أجلى وعزموا على النزوح من جانبولاد . هكذا أخبرنى صديقى كمال الدين فى رسالته ، جزاه الله خيراً . ولم ينس أن يبعث إلى فى خطابه تحية من أخته الصالحة . كتبت نجوى إلى تحيتها تشد من عزيمتى وتدعو لى بالفرج القريب . إننى لم أزل منذ حللت فى ذلك السجن أراها أمام عينى ، ولكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتها إطاراً من الأحزان والآلام . أما صورتها التى ملأت قلبى عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة .

دب الأمل إلى قلبي وصار يرفه عنى أثر ضيق السجن وظلامه .

وما أكرم مساكين جانبولاد ! ليس لبلد أمل فى الحياة إذا فقد مساكينه ، فهم الأيدى وهم الأرجل وهم القلوب والأحشاء . لا قوام لأمة بدونهم ولن يستقيم أمر أمة إلا إذا ساوت بين رأسها وبين سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة .

ولكن الطغيان أعمى ، ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم . يستطيع المساكين أن يعيشوا فى الأرض الفسيحة ، فإن عندهم الأيدى والأرجل تعمل وتسعى ، وهم يجدون وطناً حيث يحلون لأنهم فى كل وطن يخدمون . ولن يضرهم أن تزول الحروب بين الأمم وأن تكون بلاد الله كلها للإنسان .

لم أشك فى أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخروج من جانبولاد . أيها الأشقياء لو اطلعتم على ما فى قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه . إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم .

ولقد صدق ظنى فيما ذهب إليه ، فما أتى عصر ذلك اليوم حتى سمعت السجان يعالج فتح باب حجرى ثم سمعت صراخ المصراعين وهما ينفرجان ثم رأيت ذنب السيد الذى انحنى وهو داخل من الباب المطأطئ . كان الذنب يضطرب فوق قلنسوة حريرية صفراء عند ما فتح الباب . ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد . وكان مثل الببغاء كسائر أصحابه ، حتى كدت أقهقه من رؤيته ، ولكنى أمسكت نفسى ونظرت إليه صامتاً .

فنظر إلى مبتسماً وقال بعد أن حيا : « أنت رجل طيب . هكذا يقول الناس عنك . وليس السجن بالمقام اللائق بك » . ثم نظر حوله مشمئزاً .

فقلت له : « لاشك فيما تقوله أيها السيد . إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق ، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت . أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق على وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها » .

فهز رأسه موافقاً وقال : « وإذاً فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها ؟ »

فصحت : « مصلحتى ! إنما هو حقى » .

فقال الرجل متراجعاً : « حقك ! ليس من حقك أن تسير الأمور حسب أهوائك » .

فقلت فى حنق : « بل أقول إنه حقى ، وليس لأحد أن يسلبنى إياه » .

فاحمر وجهه ونظر إلى نظرة بشعة وقال : « أهذا ما تعلمته فى سجنك ؟ »

فقلت مبتسماً : « نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة » .

فقال ساخراً : « تعلمت مثلا أن توجه ألفاظاً جافية إلى من جاء يحسن إليك » .

فأخذ الغضب منى مأخذه وصحت به : « تحسن إلى ! إننى لا أقبل منك إحساناً . إن من حقى أن أكون حراً . ولو كنت مجرماً لما كان هذا السجن عقاباً جديراً بإنسانيتى . اقطع يد السارق واتركه حراً ، واقتل القاتل ودع روحه حرة ، إن الحرية أثمن من اليد ومن الجسد كله » .

فنظر إلى صامتاً والدهشة تعقل لسانه ، ثم حاول أن يهدئ نفسه وقال : « دعنا من هذا القول الخانق . كن هادئاً وافهم فيم أتيت إليك » .

فقلت له هادئاً : « هأنذا ترانى هادئاً . ولكنى أنطق بالحق . قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقّاً . كنت أحياناً أتردد فى قولها من خوف هذا السجن ، فلما دخلته وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة من الشقاء الذى يسببه الامتناع عن قول الحق » .

فقال الرجل متكلفاً العطف : « لسنا نخشى الحق . قل ماشئت من الحق الصحيح » .

فضحكت مقهقهاً ، وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها ، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها ، ثم قلت : « هنالك إذاً حق صحيح وآخر غير صحيح ؟ إنما أعرف الحق حقّاً . فإذا لم يكنه كان باطلا » .

فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسما : « قله إذاً . قل الحق » .

فقلت مسرعاً : « لقد قلت ما ثار فى نفسى وهذا حسبى الآن » .

فقال فى عطف متكلف : « أنت مخطئ فى تقديرك كله . لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا . فأنت رجل عالم لست من السوقة الرعاع » .

فقلت مندفعاً : « السوقة الرعاع ؟ من هؤلاء ؟ لا أعرف سوقة ولا رعاعاً إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فساداً . وأما رجل الحقل الذى يلوث

يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب ، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين — أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين . فإذا كان من السوقة الرعاع فما أحب إلى أن أكون منهم » . فقال السيد متأففاً : « أوه ! أقصد أنك رجل عاقل لا ترضى بالفوضى » .

فقلت : « لست أرضى بالفوضى لبلد من بلاد الله » .

فقال مرتاحاً : « إذاً قد اتفقنا ،وأنا آت إليك موفداً من مولاى تيمور العظيم ، إنه يمد يده إليك » . فصحت فى دهشة : « أنا ؟ يمد يده إلى أنا ؟ أنا هنا أسير ويد الأسير مغلولة » .

فقال معاتباً : « أنت تتجنى . هذا كرم لا ترفضه » .

فقلت وأنا أغص بريقى : « كرم ؟ ما الذى حمله على القذف بى إلى هنا ؟ أليس هذا بغياً ؟ وهل إزالة البغى تكرم ؟ » .

فصاح فى حنق : « أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى ، وتستهين باسم مولاى » .

فقلت له هادئاً : « لست أفهم » .

فتحرك ضجراً وقال : « إذاً أنت ترفض السلام » .

فقلت : « الذى يريد السلام لا يستشير فيه » .

فصاح وقد نفد صبره : « هذا تعنت . هذا عناد » .

فقلت وقلبى يدمى : « أنا فى سجنى كأننى لست شيئاً . لقد سلبتم حقى فى الحياة حراً وأنتم أصحاب الحول والقوة . ردوا على حريتى فهذا حقى » .

فقال وقد ثار : « لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام ، فلتتحمل العقبى » . فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت : « تهددنى ؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط ؟ » .

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها ، وكان منظره مسلياً فوقفت أنظر إليه حتى سكن ، ثم قلت له : « إذا كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبي » .

فأخذ يرعد ويبرق وقبض يده فرفعها نحوى صائحاً : « اخرس ! »

فنظرت إليه هادئاً ولا أزال أضحك وقلت : « أهكذا تخشى لسانى؟ »

فدفعنى دفعة غيظ كدت أقع منها ، ولكنى لم أشأ أن يخرج بغير أن أسمعه آخر كلماتى فقلت :

« ستقف معى أنت وسيدك وجهاً لوجه أمام الأبد . ستقفان وجهاً لوجه أمامى والعار يقطر من وجهيكما ، وتتردد أصداء هذا الحديث جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة . وستشهد الأجيال قوتى وضعفكم وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم . وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان ».

فصاح الرجل صياحاً عالياً لم أفهم منه لفظاً ، وخرج يخبط الأرض فى عنف ، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى السراديب بعد حين وعاد السكون العميق ، ثم أتى السجان إلى حجرتى فأعاد المصراعين إلى إغلاقهما ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله ، واختفى الشعاع الضئيل من الضوء وأقبل على الظلام الكثيف يلف ما حولى ، ولكن قلبى كان يشتعل ويضىء . وقمت أصلى لله شكراً فقد نصرنى فى سجنى على تيمور فى جبروته.

٢٠

لم أنم من الليل شيئاً بعد أن انصرف عنى الرجل صاحب الذنب ، ولكنى كنت مطمئن القلب مبتهجاً . فلما مضى الليل وأطلت على بوادر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى ، سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى ، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجان حاملا فى يده صرة . فتبسم فى وجهى أول بسمة منذ رأيته ، ثم ألقى إلى الصرة وقال : « هذه خلعة مولاى » . فنظرت إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله ، فأعاد كلماته وهو يزيد فى ابتسامته اتساعاً وقال متلطفاً : « خلعة مولاى تيمور العظيم ، لكى تلبسها ثم تمضى إليه مع الأمير صاحب الذنب الذى ينتظرك عند الباب » . فدار بى رأسى وحسبت أننى فى رؤيا ، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجرة ، بيدى فوجدته بارداً قاسياً كعهدى به ، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأتأكد من أننى لست نائماً . ثم خررت لله ساجداً . ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض ، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأته ، حتى بلغت الباب ، فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفاً مقطب الوجه ، فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين . وهبت على أنسام الصباح الباردة ، تلك الأنسام الرطبة التى تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون . ووقفت حيناً أملأ صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة ، وأنوار الصباح الرفيقة الباسمة ، وامتلأت

عيناى بالدمع . ثم سرت وقلبي يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله ، والذى يلطف فى الخطب الجسيم وينعم بما لا يحصى من الآلاء .

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين يناديني من ورائى «إلى أين؟» فلم ألتفت إليه لأنى كنت منصرفاً إلى تسبيح قلبى ، فأسرع حتى صار إلى جانبى وأمسك بذراعى وقال معبساً : « أما تعرف أن تيمور ينتظر ؟ » فرفعت بصرى إليه وكان رجلا طوالا ، وقلت له مترفقاً : « أما تعفيني ! » فقال وهو يقلل من عبوسه : « وهل هو أمرى حتى أعفيك ؟ إنه أمر مولاى». فتنبهت إلى نفسى وزالت دهشتى فتمثلت لى حقيقة الحال وعلمت أننى مطلوب إلى مجلس تيمور . وماذا كان تيمور يبغى منى ؟ فتلطفت فى القول وخاطبت الرجل خطاباً ليناً فقلت له : « إذا تكرمت على بساعة أذهب فيها إلى دارى لأصلى سألت الله لك العافية » . وما قلت ذلك حتى سمعت صوتاً يصرخ من ورائى يناديني باسمى ، فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعاً نحوى وهو يحمل صرة فى يده . فوقفت حتى صار إلى جانبى ومد يده بالصرة قائلا وهو يلهث : « أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس ؟ » . فنظرت إلى ملابسى التى كانت من قبل ملابس السيد القاضى فرأيتها فى الحق زرية لا تليق إلا أن تلبس فى السجون . فأخذت الصرة من السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة . ثم نظرت إلى الأمير الذى إلى جانبى فوجدته ينظر إلى باسماً ، فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفاً فقال : « لا بأس عليك أن تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاى . فإنه يريد أن يراك فى ساعة الغداء » . وكان هذا القول مدهشاً

فى الحقيقة ، ولكنى لم أقف لأندهش بل أسرعت قاصداً إلى دار صديقى كمال الدين ، فما كان أشوقنى إليه ، وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة « نجوى » ، ما كان أشد شوقى إليها ! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفاً ، فأبطأ على الجواب حيناً ، ثم سمعت صوتاً يسأل : « من هذا ؟ » وكان صوتاً حبيباً . فقلت بصوت متهدج « أنا جحا » .

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت « نجوى » من ورائه تنظر باسمة بعينيها الواسعتين وقالت فى حماسة يغالبها الحياء : «مرحباً بك!» ولمحت تحت جفنيها ماء يترقرق .

ثم احمر وجهها ، فأصبح مثل لون الوردة فى الصباح إذا بللها الندى ، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدى أصافحها ، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى . ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض ، بل كان رحمة ورقة فى صفاء نور السماء . وقلت كلاماً وقالت كلاماً لا أذكر منهما شيئاً ، إذ كنت أنطق بما لا أعى ، وأعى ما لا أنطق به . ولما هدأت سألتها عن أخيها ، فقالت إنه خرج فى الصباح الباكر ، ودعتنى إلى الدخول . ولكنى اعتذرت وشكرتها واستأذنتها فى الذهاب وأنا أنازع نفسى نزاعاً شديداً ، فألحت على فى الدخول لأستريح ، وألحت معها خلجات قلبى ، ولكنى حركت نفسى قسراً ومضيت فى سبيلى ولم ألتفت إلى ورائى خوف أن تحملنى رجلاى جرياً إلى الباب الذى لم يغلق بعد ذهابى .

سرت في طرق جانبولاد . وكان بصرى كلما وقع على شيء من بيوتها أو عطفة من عطفاتها رأيته باهر الحسن، كأنني لم أنظر إليه قط . وخيل إلى أنني أسير في مسارب جنان خلع عليها ضوء الصباح ألواناً فاتنة . وما زلت أهيم حتى بلغت قريباً من دارى ، فقلت أذهب إليها لألبس خلعة تيمور ، وجررت نفسى جراً لأنني كرهت جدران البيوت من أجل جدران سجنى ، ولكنى لمحت عند باب بيتى شيئاً يشبه أن يكون جمعاً . فترددت وداخلنى الوهم من أن يكون تيمور قد بدا له رأى فبعث بعض جنده من ورائى ليعودوا بى إلى حيث كنت ، وخطر لى أن أطلق ساقى للريح وأنجو من المدينة ، ولكنى آثرت أن أتحقق، فتقدمت فى حذر أتدارى فى ظل البيوت . فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلا ولا ريشاً . بل لاحت لى عمائم بيضاء وقفاطين فضفاضة . فأطمأننت وذهبت نحو الجمع ثابتاً ، حتى بلغت أوله وملت أسأل أقرب الواقفين عن سر الزحام . فنظر إلى وما كاد يتبين وجهى حتى صاح صيحة فرح : « خواجه نصر الدين ! جحا ! » وإذا بالسيل الجارف يردد الصيحة ، ويتدافع نحوى فى ضجيج وعجيج حتى أحاط بى ، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدى يقبلها ، وكل من يصل إلى ثيابى يمسح عليها كفه ، ومال بعضهم نحو قدمى يلمسونها ، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه . وبعد لأى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلى ، حتى صار عندى وأخذنى بين ذراعيه ، وجعل يقبل كتفى وعنقى . وصحت عندما رأيت وجهه : « صديقى ! » فقال لى كمال

الدين : « لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجئنا إلى هنا » . فقلت له : « لقد عرجت على بيتك ... » وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر : « إلى المسجد ! » ثم وجدت نفسى أتحرك كما يتحرك العود على التيار القوى . ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذى كنت من قبل أجلس عنده . وما كان أشوقنى إلى أن أعاود لذة أحاديثى ! وفتح الله على بما شاء ، ولا أدرى كيف تحدثت فقد كان الجنان يملى واللسان يهدر والقلب يجيش مليئاً . وما زلت فى درسى لا أحس للوقت مراً حتى أذن للصلاة ، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه . ثم أردت الانصراف ، فأخذت صرة تيمور تحت إبطى وقمت أسير فى مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهممت بالخروج فإذا بى أرى الأمير صاحب الذنب يقبل على مترفقاً باسما ويسألنى أن أذهب إلى مولاه .

فقلت له : « أنا متعب وبى حاجة إلى الإغفاء » .

فقال باسما : « إن مولاى ينتظرك على الغداء » .

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزنى كمال الدين فى ذراعى ففهمت قصده وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يسارى ، وأبى الناس إلا أن يشيعونى حتى أبلغ القصر . فساروا فى موكبهم الصاخب يجهرون بذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة .

وأشار إلى الرسول أن أدخل . فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له : « أما يدخل معى صديقى » ؟

فقال الأمير وهو يحنى ذنبه : « كما تشاء وتقدم راشداً » .

فنظرت إلى الأمير وإلى الصرة التى فى يدى وقلت : ولكنى لم ألبس خلعة البادشاه .

فقال وهو ضجر : « لا بأس عليك فادخل فى ثيابك » .

فلم أجد بدًّا من الطاعة ، وأعطيته الصرة قائلا : « احفظ لى هذه معك » . فمد يده كارهاً وأخذ الصرة وقال لى فى شىء من العنف : « هلم إذاً » . فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم ؛ ودعوت لهم بالخير ، وانطلقت فى سبيلى إلى ما بين عمد القصر . وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقنى ، حتى دخلت . وشعرت برهبة عندما رأيت مطالع الأبهاء ، وفكرت فيما أنا صانع فى حضرة العظماء ، فما تعودت أن أجالسهم ، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم ، ولم أجد من يرشدنى غير صديقى كمال الدين . فهمست فى أذنه : « كن إلى جانبى فإذا رأيت منى خطأً فاجذب جبتى » . فهز رأسه منعماً ، وسرنا حتى دخلنا البهو . وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه ، ولا تحصر العين ما علاه : ألوان من زهر ، وصحاف من فضة وذهب ، وأكواب من البلور ، وفوط من الكتان الناصع ، وطنافس من الصوف الوثير ، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف أسماءها ، وكراسى كأنها رصعت بلؤلؤ ، عليها رجال كالتماثيل ، يلمع فوقهم الحرير ويفوح من لحاهم العبير ، وقد توسط تيمور الصدر فى عمامة ذات زخرفة وجوهر ، وثياب وهاجة وحلى متلألئة براقة ، وكان ينظر نحوى بعينه وبجرحه ، من تحت جبهة ناتئة ، وحاجبين مائلين صعداً . وكانت لحيته سوداء خفيفة ، وفمه أشدق

يكاد اللعاب يسيل من جانبه . فوقفت أنظر إليه حيناً وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيداً للناس . وجذبنى كمال الدين من جنبى ، فالتفت إليه فوجدته يومئ إلى أن أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير . فذهبت إلى الكرسى الذى أشار إليه فى جواره وجذبت كرسياً آخر وأشرت إلى كمال الدين أن يجلس عليه . ولم أدر ما الذى حمل صاحبى على أن يجذب جبتى عند ذلك ، ولكنه جلس عندما أشار إليه تيمور . وقد كنت أتمثل تيمور كبعض النمور أو الفهود ، له أنياب ومخالب وزئير وزمجرة ، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلا أو نصف رجل ، فلم ألبث أن حللت عقدة وجهى ، وفككت حبسة لسانى ، ووجدت نفسى أكلمه كما أكلم الناس ، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله ، ووجدته يضحك أحياناً ، ويدرك من المعانى ألواناً . ولست أنكر أنى لم ألبث أن نسيت حنقى عليه وسوء ظنى به ، وأقبلت عليه طيب النفس منشرحاً . وتلطف بى فكان يمد يده إلى بقطع مختارة من طرف الطعام ، وكنت فى الحق جائعاً ، فوجدت فى الأكل لذة لم أعهدها ولم أعرفها . وكان حياله طبق فيه فاكهة تأخذ العين بجمال منظرها ، ولست أعرف لعلها كانت من بعض ما حمل إليه من أطراف الصين ، أو من غوطة دمشق ، فمد يده إلى بواحدة كانت لها رائحة لا يشبهها ريح المسك والعنبر ، ولا يدانيها لون الورد الأنضر . فرفعتها لأمتع نفسى من شميمها ، ثم قضمت منها قضمة كأنها الشهد فى مذاقها ، وكدت أقضم منها أخرى لولا أن جذبنى كمال الدين من جبتى ، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر عينى فهمس لى قائلا : « هدية الملوك لا تؤكل ... »

فعجبت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنأكلها ونشكره على جزيل نعمه ، ولكنى لم أجد حيلة فى نصيحة صاحبى ، فهو أعلم بما كان ينبغى لى أن أفعل فى مجالس الملوك . فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إلى بقية طعامى ، وشعرت بارتباك كاد يفسد على غدائى . ولكن تيمور مد يده إلى ورك ديك سمين فقدمها إلى وهو باسم ، فأخذتها من يده وشكرته فى أدب مقلداً حركة من حولى فى تحاياهم ، ثم أمسكت الورك بيمينى فى سكون ، ولم أستطع أن أمد يدى إلى شىء آخر فجذبنى كمال الدين من جبتى فالتفت إليه مستفهماً ، ولكنى قبل أن أسمع همسته سمعت تيمور يسألنى : « لم لا تأكل ما أعطيتك ؟ » فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذراً : « أيها البادشاه ما كانت هدايا الملوك لتؤكل . وهذا صديقى يجذبنى من جبتى » .

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه ، ومال على ظهره حتى اهتزت لحيته ، وأغمضت عينه . وسمعت كمال الدين يهمس : « هذه ورك تؤكل» فرفعت بها يدى فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة لا أعرف ماذا يطلع به صاحبى على مع كل لقمة . ولكن تيمور تبسط فى محادثتى . واشترك من حول المائدة فى التلطف بى ، حتى سرى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى ، وأقبلت على المائدة آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا حتى امتلأت ، وأمتعت نفسى بكل الطيبات . وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث ، كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه .

أيتها الأقدار العجيبة !

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول . فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار وقد وضعوا أيديهم على الصدور ، وأمالوا رءوسهم على النحور ، حتى مست لحاهم أحزمتهم الحريرية أو الذهبية . وأقبل الشعراء واحداً بعد واحد ، وجعلوا يتغنون بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيبته ، وسيفه ورمحه ، وقوة ساعده ورقة قلبه ، وكان منظرهم فى الحق مسلياً ، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون ، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله فى الوجوه . مساكين هؤلاء ! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى أتأمله لأرى صدقه ، فإذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه ، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته ، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفت إليه لأرى هل معه من ذلك آلة ، فلم أجد من كل ذلك إلا كذباً حتى فرغ الشعر ، وهز تيمور رأسه مرتاحاً ، وأذن للشعراء أن ينصرفوا . ثم أشار إلى رجل قائم عند رأسه ، فانصرف وراءهم ، ولا أدرى بم أمره ، أبعقابهم على الكذب أم بثوابهم على الرياء ، ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة ، والصور المخترعة ، فهى تستقر فى العقول فلا يزعزعها من بعد شىء ، ومثل هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة ، وأفسدت معنى الكرم والعدالة ، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيداً فى الأغلال . وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس ، فقديماً كان الإنسان أسيرها .

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان ، وأوازن بين المحاسن

وأضدادها ، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة فى جبتى ، فالتفت فإذا كمال الدين يغمزنى بعينه مشيراً نحو تيمور ، فالتفت إليه فوجدته يبسم ويقول : « لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها الشيخ الجليل » .

ولمحت فى مظهره ورنين صوته شيئاً كثيراً من العطف حتى رققت له ولمت نفسى على سابق ظلمى إياه ، وعرانى ارتباك فلم أستطع جواباً .

فقال لى متطلفاً : « كنا نتحدث فى أمر نحب أن نسمع فيه رأيك » .

فقلت وقد سرى عنى : « فيم كان الحديث ؟ »

فقال : « كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة قدره فى أعين الناس » .

فقلت مبادراً : « هذا شىء يسير . لقد عرفت قدرى فى أعين الناس دائماً » .

فقال باسماً : « ولكنى جربت ذلك فلم أجده كما وجدته » .

فقلت له : « لعل الناس يخشونك ، أمنهم خوفك تعرف ما تشاء أن تعرفه » .

فضحك وقال فى لهجة التحدى : « أتقدر أن تخبرنى كم أساوى من المال ؟ »

فقلت ناظراً إلى من حولى فى ارتباك : « أظن أن هؤلاء السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال » .

فقال ضاحكاً : « لم أجد عندهم ما يشفينى . قل ولا تخش شيئاً » .

فنظرت إليه متردداً ، ثم تجرأت وجعلت أفحصه ببصرى وقلت :

— لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار .

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه ، ثم قال :

— إنك لم تبلغ فى جوابك شيئاً . إن ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير .

فقلت وقد امتلأت سروراً من صدق حدسى : « لقد صدق ظنى إذاً . فما كنت أنظر فى تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس » .

فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسه ينقطع . وضحك أصحابه مثله حتى لم يبق فى المجلس أحد لا يضحك غيرى أنا وكمال الدين . ونحن ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم .

وبعد حين هدأ تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره ، ثم نظر إلى جاداً وقال : « أيها الشيخ المبارك ، إننا نحب أن نسمع وعظك » . فوقعت كلمته على وقعاً ثقيلا ، وزادت حيرتى عندما نظرت حولى ، ورأيت من كان هناك من حراس وأتباع ومن لحى شهباء وعمائم مكورة بيضاء . فماذا كان لى أن أقول بين هؤلاء ؟ وما خرجت من سجنى لكى أعظ تيمور ، ولعل تلك العظة تعيدنى إلى ما كنت فيه من ظلام جحرى . وترددت طويلا وأطرقت حائراً وكدت أنطق معتذراً ، ولكنى لم أجد لنفسى عذراً . وسمعت تيمور يقول لى : « لقد سمعت عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك ، فلا تحرمنا من بركة مواعظك » . فشعرت كأن روحاً جديداً يسرى فى أعماق قلبى ، ونسيت إشفاقى وخوفى ، وقمت كأننى أنشط من عقال . فأحسست جذبة فى طرف جبتى ،

ولكني لم أبال صاحبي ، وانطلقت أتكلم ، فقلت ناظراً إلى تيمور : « لا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الذين يمدوحونك ، فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها » .

وما نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمع ينتفض كأن ناراً لذعتهم ، ورأيت لجاهم تخفق ، ونظروا إلى ثم نظروا إلى تيمور ليروا ما هو صانع بى ، ولكنى لم أنظر إلى أحد وقلت مستمراً : « وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شيء يعظك خير من الحقيقة ، فتأمل وفكر والتمسها . لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من بعدك ، وجعل لك أياماً على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها . ولقد كنت قبل أن تخلق نسياً منسياً ، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه الأرض لا تأخذ منها شيئاً ، فلا تجعل هذه الأيام القصيرة تغطى على الحقيقة الخالدة ، ولا تجعل هؤلاء الذين يمدحونك يسخرون من حكمتك . قد خلقك الله كما خلق هؤلاء الناس جميعاً ، وجعل لكم الحياة ميداناً وامتحاناً لكى تؤدوا الواجب الذى ألقاه جل وعلا على الإنسانية عندما خلقها منذ قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وما عبادته إلا السعى إلى الكمال الذى قدره للخلق ، وجعله قصد حياتهم . كان من قبلك ملوك بلغوا من السلطان ما بلغت ، ثم أضلتهم الحياة فمضوا عنها وصاروا نسياً منسياً . فهم اليوم صور وأسماء مجردة معطلة من كل مجد وهيبة ، لا فرق فيها بين فرعون وبين العبد الذى كان يسجد عند قدميه . فالملوك الذين لم يخلفوا إلا آثار العسف والطغيان لم يكونوا أهلا للإنسانية بل كانت حياتهم على الأرض لعنة لأنهم جحدوا

الله الذى وهب لهم الحياة . كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعزاء ، وأن يسفكوا الدماء ، وأن يجعلوا أهل الأرض عبيداً ليتملقوا كبريائهم وغرورهم. فلما مرت أيامهم ذهبوا بعد أن دمغهم اليقين ، فعلموا ولات حين علم أن كل ما اضطربوا فيه لم يكن سوى غرور من الغرور ، وليس فيه شيء سوى الغرور ، وبقيت الأرض بعدهم باسمة كأنها تسخر من جهالتهم العمياء .

« لقد مررت يوماً بغابة ، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشر ، وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التى أعدها الله للإنسان ، أن يعيش على قانون الرحمة والحب لا على القانون الطليق الذى يحكم الغابة . ولكنى كلما تأملت بدا لى أن من بنى الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن يمسخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعاً فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيوانى وحشى . وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسات الحياة ، وفلتة من فلتات أقدام الإنسانية فى صعودها نحو العلا ، الأرض لا تضيق بالناس جميعاً إذا أرادوا أن يعيشوا فيها لما أراد الله لهم ، بل هى تتسع للجميع وتفتح ذراعيها للجميع ، وتدعو الجميع إلى الحياة السعيدة . فهنيئاً لمن استطاع أن يكون من رسل الرحمة . ومن أكبر الإنسانية وأعظمها ، فلم يسفك دماءها ، ولم يدنس كرامتها ، وسعى فى تحقيق الخير ، وأعان على تحقيق السعادة للجميع » .

ولما انتهيت إلى آخر قولى تنفست نفساً عميقاً وشعرت بأن حملا أزيح عن كاهلى ، ونظرت حولى حتى وقعت عينى على تيمور .

وما كان أشد عجبي إذ رأيته يبكي . نعم كان يبكي وهو مطرق والدموع تنحدر على لحيته . وكان الجمع كله مطرقاً يشارك فى البكاء ، إلا صديقى كمال الدين فقد كان ينظر إلى مأخوذاً وصدره يعلو ويهبط فى اضطراب . فلما رآنى قد أمسكت قام نحوى ولم يعبأ بأحد ، حتى صار أمامى وضمنى إلى صدره ، قائلا فى صوت متهدج : « لقد عرفت أنك لن تخشى فى الحق أحداً . وأحمد الله إذ لم تطعنى عندما جذبتك من جبتك » .

ولما عزمت على الخروج بعد ذلك صافحنى تيمور متأثراً ، وأمر لى بخلعة أخرى ، فذهبت إلى دارى عند الغروب بخلعتين كريمتين من البادشاه كأننى لم أكن عند شروق الشمس ملقى فى سجنه . فسبحانك يا ألله !

٢١

سمعت فى اليوم السابع بعد خروجى من السجن حركة فى جانبولاد ، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذى جعلنى تيمور إماماً له ، وكانت ضجة عظيمة حسبت أنها هيعة حرب أو حدث من الأحداث . كان الناس يتواثبون ويتسابقون فى هياج ويقولون « خرج تيمور » .

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائداً إلى سمرقند، فلم يبق من جيشه أحد فى جانبولاد ، وخرج معه كثير من أصحاب الأعلام وحملوا قدورهم معهم ، لأنهم لا يقدرون على مفارقتها أو الحياة من غيرها ، فهى عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن . وخرجت مسرعاً لأنظر إلى الموكب الضخم ، ولم أستطع مغالبة نفسى فى رغبتها، فرأيت تيمور وهو خارج . وسلمت عليه ولا أنكر أننى أحسست فى قلبى عطفاً عليه . مسكين هو ما كان أفقره إلى السلام ! ورأيت السيد القاضى صاحب السيف يسير وراءه فى مؤخرة الجيش على بغلة حمراء ، وكانت قدوره الخمسون محملة على قافلة من الإبل تسير فى آثاره . وكنت قريباً منه على جانب الطريق فوقعت عينى عليه وتبسمت له وأحسست له رقة . مسكين هو كذلك . فقد كان الحزن بادياً عليه ، ولما رآنى أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتى ، ثم مضى الموكب حتى خرج من المدينة . وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين عشية وضحاها !

وبعد يوم واحد عاد السلطان علاء الدين إلى ملكه ونزل فى قصره ،

ورجع الأمر إلى مستقره . وكان لعودته يوم مشهود أخذت فيه المدينة زينتها ففرشت له الأرض بالطنافس ، ورفعت له الأعلام فوق البيوت — أعلام تنم عما فى القلوب من بشر وليست مما ينم عما فى القدور من ذهب . وقد اختار السلطان علاء الدين أن يقيم فى جانبولاد . ولعله أراد أن يزيل أثر تيمور منها . فرفع رايته على قلعتها ، وأظهر مجده فى مقرها وساحتها . فقد طالما شقيت قلعتها ببنود تيمور ، وطالما ضاقت ساحتها بجنده المغرور . وازدحم الناس على جانبى الشارع الأعظم . وخرجت فيمن خرج وكأنى عدت فى طربى إلى عهد الصبا ، ولما مر موكب السلطان فى خيله ورجله أقبل ركب الحرم فى هوادجه وستوره ، ومن عجيب الاتفاق أن مر بى هودج باهر فى ستور من الحرير والجواهر فلما صار تلقائى خفقت ستوره خفقة فماذا رأيت ؟ إنها علية بعينها وجبينها وشعرها ونحرها ومعصمها وأناملها . ولكن أى فرق بين ما رأيت منها بعينى عند ذلك وما كنت أراه منها فى خيالى من قبل فى صباحى ومسائى ؟ أأنا الذى تبدلت وتغيرت أم هى التى خلقت خلقاً جديداً ؟ رأيت فى نظرة خاطفة عيناً غير العين التى سحرتنى وجبيناً غير الجبين الذى أوحى إلى بالمعانى .

أين هى من «نجوى» الصالحة الباسمة ذات العينين الناطقتين الوديعتين . أين هى من « نجوى » التى لا أبرح أراها فى لمعة الشمس وفى ضوء القمر وفى فم الزهرة وفى قطرات الندى ؟

أهى علية التى تغيرت أم هو قلبى الذى يحس وعينى التى ترى ؟ لقد كنت ما حييت أحب أن أكشف عن قرارتى وأتعرف ما خفى من عيوبى .

ولست أبرئ نفسي ولا أزكيها فأنا كما خلقني الله ضعيف لا أدعي قوة سقيم لا أدعي سلامة . ولكني أصف ما كان مني غفر الله لي وتجاوز عن ضعفي وسقمي .

ولما عدت إلى بيتي بعد انصراف المواكب عادني وجد غلب علي لم أستطع إدراك علته ولم أقو على صرفه أو الاحتيال في مغالبته . فإذا بي أحس عزوفاً عن الناس فكنت لا أكاد أطيق مع أحد حديثاً . وبقيت في الدار لا أخرج إلا إلى صلاتي ثم أعود إليها فلا أجد ما يفرج همي إلا البكاء . وكان كمال الدين يزورني كل يوم ساعة ، فأكاد أضيق به وأتحرج أن يرى وجومي وبكائي . فإذا دعاني إلى زيارته تعللت له بالعلل حتى ينصرف عني . ولكنه جاءني يوماً وجعل يحملني على الخروج وكلما تخلصت بعلة حاورني فيها وجادلني حتى قال لي كلمة هزتني وزعزعت عزمي . قال إن أهل جانبولاد يتحدثون عني بما يكاد يبعث فيهم فتنة ، يقولون إنني أنا أخرجت تيمور من الأرض بكرامتي ، وإنني أنا هزمته بمقالتي . وقالوا إن السلطان ما اختار الإقامة في جانبولاد إلا ليكون قريباً مني فتحصل له بركة صلواتي ودعواتي .

فما سمعت قوله حتى دهشت وحزنت . وسألت الله أن يغفر لي ولا يؤاخذني بما قالوا . هكذا الناس لا يرضيهم إلا الإغراق والغلو . ولو علموا الحق لعرفوا أن الله لم يخلق من البشر شياطين مردة ولا ملائكة بررة . إن الله خلقنا بشراً نقارف الخير والشر ويمتزج فينا الضعف والقوة . وما أجدرنا أن نفيض بالحب والعفو وأن نعرف أننا أبداً فقراء إلى الحب والعفو .

وحملنى قول صديقى أن أخرج من عزلتى وأستغفر الله أن أكون قد أثرت فى الناس هذه الفتنة بكلمتى أو إشارتى . وخرجت منذ ذلك اليوم إلى المسجد فعاودت فيه دروسى لعلى أدخل إلى قلوب الناس شعاعاً من الحق يردهم عن هذا البهتان . بل لقد تعمدت أن أظهر فيهم ببعض ما أكره ، وأعلن بعض ما أنكر لعلهم يدركون أننى بشر أزل وأخطئ ، فإذا اجتهدت فأنا إنسان ضعيف وإذا علمتهم فأنا مثلهم بشر سخيف ؛ ولكنهم كانوا يرون آثامى تجلياً وحماقاتى رموزاً حتى عجزت عن صرفهم عن اعتقادهم وهممت بالهجرة خوفاً من تضليلهم . ولكن كمال الدين كان كالصخرة ثابتاً . فنصحنى أن أواصل دروسى فإن العلم وحده يهدى النفوس ويهذبها .

وكنت فى دارى ذات مساء فسمعت طارقاً يدق الباب وكنت لم أر صديقى كمال الدين فى ذلك اليوم ، فوقع فى نفسى أن يكون هو الطارق ، فأسرعت لأفتح له ، ولكنى دهشت عندما رأيت رجلا لا أعرفه . وكان رجلا حسن الوجه واللحية ، عليه هيئة العلماء ، وله سمت الصالحين . فرحبت به ورجوته أن يدخل . فاعتذر قائلا : « لعلى قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح ، فأرجو منك عفواً » فأعدت عليه الترحيب ودعوته للدخول فأبى قائلا : « مولاى السلطان قد بعثنى فى طلبك » .

ولا حاجة بى إلى إطالة الحديث فى وصف ما دار بينى وبينه فقد كان لا بد لى من رؤية السلطان . وكان علاء الدين عندى كريماً جليل القدر ، فهو سلطان وطنى ، وعرفته الملك الصالح والسلطان البر والعالم الورع . فلم أتردد طويلا فى الذهاب إليه مع كل ما كان فى نفسى من العزوف عن غرور الحياة .

ولما بلغت القصر ودخلت فى رحابه ، وانتهيت إلى مجلس السلطان ، رأيته فى حلقة من العلماء والحكماء . فانشرح صدرى لمنظره إذ لا شيء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة . قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغى أن يحكم الناس سوى الفلاسفة . ولو تأمل العاقل هذا القول لوجد أنه الحق عينه . ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته ، فإن الدول كانت منذ القدم لا تدين إلا لأولى القوة ، حتى كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على أصحاب السيف لا يجمل بأحد غيرهم أن يقبض على صولجانه . بل لقد قالوا فى بعض الأمثال إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ولكنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم الفلاسفة . وأغلب ظنى أنهم لو جربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه ، ولم يرضوا به بديلا . فإن الفلاسفة يعرفون ضعف البشرية ، وهذا يكفل لحكمهم الرحمة . ويعرفون كرامة الإنسانية ، وهذا يكفل لهم التطلع والتسامى . ويعرفون معنى الفناء ، وهذا يكفل لهم الاعتدال .

وكانت ليلة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علاء الدين ، لم أنصرف عنه بخلعة ، ولم أذق عنده طعاماً ، ولكنى عدت من عنده بقلب عامر بالمعانى . ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء !

٢٢

لم تفارقني وساوسى منذ ليال وكنت أحس كأنني أضطرب فى بحر لجى موج من فوقه موج من فوقه سحاب . كانت صورة علية فى تلك الليالى لا تبرح ماثلة أمام عينى ناظرة إلى بجبينها العالى وأنفها الأشم وعينها المتكبرة كأنها تسألنى « من أنت ؟ » لقد كانت تلك الصورة من قبل تبدو لى عاطفة رحيمة تأخذ بيدى إذا ما اشتدت بى الحيرة وتصعد بى إلى حيث الصفاء والسلام ، فما الذى بدل نظرتها ؟ ولكن ما بالى أتحدث عن صورة علية ابنة علاء الدين كأنها شخص له جسد وفكر وروح يحدثنى ويتغير فى نظرته نحوى ؟ أليس هذا من الخبل والتخليط ؟ أكانت فى عقلى لوثة هى التى خيلت إلى ذلك الوهم الذى تسلط على كل هذه المدة الطويلة منذ وقعت عينى عليها فى ماهوش ؟

كنت سابحاً فى هذا الخضم المائج عندما طرق بابى رسول السلطان ودعانى إلى حضرة مولاه . وكان السلطان على عادته نبيلا كريماً ، فما زال يكرمنى فى الحديث ويقبل على بالترحيب ويبالغ فى التلطف بى — عفا الله عنه — فيسألنى الدعاء ويتلمس منى البركة حتى كاد الغرور يدخل إلى قلبى ، وأى إنسان لا يتدسس إلى قلبه الغرور ؟ لقد أوشكت أن أصدق السلطان وأومن بما يقوله أهل جانبولاد فأظن فى نفسى القرب من الله . أعوذ بالله من الغرور ، فأنا أعرف الخلق بما ينطوى عليه صدرى من نوازع ضعف الإنسان ودوافع طباع الحيوان . فلما خلوت إلى نفسى بعد

ذلك المجلس تركت العنان للبكاء لعلى أنال عفو الله عما داخلنى من الغرور . وقد فاجأنى السلطان فى ذلك المجلس بأمر ما كان يخطر لى ببال فقد عرض على أن أكون له وزيراً أدير له ملكه وأشير عليه بما ينبغى أن يكون عليه حكمه . وما كدت أسمع ذلك الحديث حتى كاد يغلبنى الضحك على الحياء . فإنه عندما طلب منى الدعاء دعوت الله له ولا حرج على إذا اتجهت إلى الله بالدعاء ، فإن الله يقبل الدعوة من خلقه ولا يقيم حجاباً بينه وبين عباده .

ولكنه عند ما سألنى أن أدير له الملك دار بى رأسى فأوشكت أن أنفلت من وعيى . ولولا أنه السلطان العظيم فى مجلسه الرهيب لانفجرت ضاحكاً ساخراً . أيكون جحا وزيراً ؟ قد أحسن السخرية من الحياة كلما رأيت فيها حماقة أو سخافة ولكنى إذا ضحكت من السخف لم يخف عنى أننى شريك لهؤلاء الذين أثاروا الضحك فى نفسى . أأكون أنا وزير السلطان وأزعم أننى أستطيع أن أبلغ قرار الحكمة والعدالة ؟ وهل أحمل على عاتقى أوزار العمال وأثقال المظالم التى ترتكب باسمى ؟ أكون أنا وزير السلطان لأحمل الناس على أن يعيشوا معى فى عالمى ؟

كيف أستطيع أن أدبر أمور الخلق وأنا أنظر إلى الحياة بهاتين العينين اللتين وهبهما الله لى . إن الحق عندى باطل عند أكثرهم والعدل عندى جور فى مذهبهم . ولست أقدر على أن أخلق نفسى خلقاً جديداً وأقلب كل معايير القيم عندى حتى أصلح لأن أحكم بين الناس على عرفهم الذى يرتضونه . فهل يستطيع السلطان أن يبدل طبعى ؟ أو يستطيع أن يأتى لى

بناس آخرين يصلحون لحكمى؟ إن الناس لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون من الحاكم إلا القوة والقسر . وهم لا يخرجون عن أن يكونوا فى إحدى حالتين إما أن يكونوا فرائس تتخذ طعاماً أو مفترسين يتخذون من غيرهم طعاماً . ولقد حاولت أن أعلمهم ولكن التعليم لا يجدى إلا بعد أن يؤتى الثمار و يحرك القلوب ويفتح العقول ويهذب النفوس . وهيهات أن يكون ذلك إلا بعد حين طويل . لقد حاول موسى أن يعلم قومه احتمال أعباء الحرية فأذاقوه مرارة الحنق والألم حتى فنى جيل منهم بعد جيل . ولا سبيل إلى استقامة الحكم حتى يستعد الناس لتحمل أمانة السلام والكرامة والعدل فى غير عنف ولا قهر . ولو كان أهل جانبولاد كلهم مثل تلميذى كمال الدين أو تلميذتى « نجوى » لهان الأمر ولكن أنى لى أن أجد فى الناس مثل هذين ؟ ما لقلبى يخفق عند ما يخطر عليه ذكر « نجوى » ؟ مالى كلما صرفت نفسى عن التفكير فيها لا يلبث أن يعود مكرهاً إليها .

أأنا أحبها؟ هل هذا الذى أحسه هو ما يسميه الناس حبًّا ؟ إننى أطرب كلما مرت صورتها فى خاطرى فكأن الحياة كلها تبسم وكأن الأفلاك من فوق تغنى . أأخادع نفسى وأوهمها بأن هذا غير ما يسميه الناس حبًّا ؟ وفيم هذا الخداع إذا كان هو الحب حقًّا ؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت عن أخبارهم ما يجعلنى أسىء الظن بنفسى . وإن قلبى يرف إذا رأيتها ، وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها وأجد فى حديثها سلاماً مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين . فهل هكذا كان المحبون قبلى ؟ وإنى لأقنع منها بالنظرة لا أطيلها، وبالكلمة القصيرة لا تعيدها، ويسرى فى

البشر إذا حبيتها فهل كان هكذا المحبون قبلى؟ ولكنى لست أحس ذلك الشوق المحرق ولا ذلك القلق المؤلم الذى يصف الشعراء أثره فى سقم أبدانهم. أيكون ما أحسه مع كل ذلك حباً ؟

لقد شردت بى الأفكار عما كنت فيه فإن السلطان أرادنى على أن أكون وزيراً فكدت أضحك لولا أن تماسكت قسراً . وأطرقت صامتاً حتى أعاد على قوله فاشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجاً إلا أن استأذنته أن أتريث فى جوابى . وعدت إلى دارى فى أشد الحيرة أقلب صور الناس فى ذهنى وأتصور ما يكون حالى إذا قبلت أن أكون وزيراً .

أأقيم الحجاب على بابى أم آذن للناس ولا أقيم حجاباً ؟ وهل أغير لهم صورتى التى ألفوها فأعبس وأشمخ وأنقبض أم أفيض عليهم بما فى قلبى وأفتح لهم أبواب صدرى وأضحك وأخلط أحياناً فى حديثى ؟

ولم تطل بى الحيرة فإنى عزمت على أن أرسل إلى السلطان معتذراً .

ولكنى ما كدت أخرج من حيرتى حتى طلعت على حيرة أشد ظلاماً فقد طرق الباب رسول آخر جاء يشتد فى أثرى . فلما استقر به المجلس همس فى أذنى : أبشر بالعلا والمجد يا جحا .

فعجبت ماذا يكون هذا المجد الذى جاء يحمله إلى وحسبت أنه قد جاءنى يطلب عملا منذ سمع أن السلطان يريد أن يتخذنى وزيراً . فهذا ما تعودته من الناس لا يكادون يسمعون أن سوط الحكم صار إلى يد رجل حتى يسارعوا إليه ليستمدوا منه أسواطاً . نعم ، فما هى إلا أسواط يستمدونها ليلهبوا بها الخلق أو كما يقولون ليحكموا الناس بها .

ونظرت إلى الرجل لحظة وكدت أصيح ضاحكاً فى وجهه لولا أنه كان فى بيتى . . . ولم يمهلنى الرجل فأعاد هامساً :

« إن السلطان يريد أن يقربك » .

فقلت له :

— بارك الله فى مولاى إنه يبالغ فى تقريبى .

فقال باسما فى خبث :

— سوف تكون صهر السلطان يا جحا .

ففتحت عينى من الدهشة وحسبت الرجل يعبث بى أو يسخر منى .

فلما رأى دهشتى قال جاداً .

— لقد أرسلنى مولاى إليك لأعرض عليك الزواج من ابنته .

فصحت ولم أتمالك نفسى :

— علية !

فقال الرجل عاتباً :

— علية ! من علية ؟ فالسلطان لم يسمها علية . هى ورد خان سليلة السلاطين .

ولم أتذكر إلا فى تلك اللحظة أننى لم أعرف اسم ابنة علاء الدين . لقد كنت أدعوها علية وأناجيها وأصاحبها فى خيالى على أنها علية وأرتل التسبيح على صورتها التى سميتها علية . ولكنى لم أسمع حقاً من قبل ماذا كان اسمها . لم أعرف إلا عند ذلك أن علية تلك لم تكن إلا صورة أخرى عرفتها فى شبابى وخلطتها بالصورة الأخرى حتى صارتا عندى خيالا

واحداً . أف لنفسى وويح لقلبي ! لقد عشت ما عشت فى عالم خصصت به نفسى ولم أفرق فيه بين الأشباح والأشياء ولا عيب على الناس إذا هم رمونى بالتخليط .

وسمعت الرجل يعيد قائلا :

– أما سمعت بشراى يا جحا ؟

كان ينظر إلى متعجباً . ولا لوم عليه إذا تعجب منى فقد كنت جديراً بالعجب لصمتى ووجومى واصفرار وجهى وزيغ بصرى . لقد كان الرجل ينتظر أن أثب راقصاً أخلع عمامتى فرحاً وأغنى مرحاً . ولكنى لم أفعل بل بقيت فى دهشتى صامتاً .

وبعد لأى استطعت أن أجمع نفسى فقلت مضطرباً :

– هذا شرف لم أكن به جديراً .

فربت الرجل على كتفى وقال باسما :

– ليس عليك من بأس فى دهشتك فإن السعادة قد تذهل الناس كما تذهلهم النكبات .

وكأنه قد فهم من حالى وقولى أننى قد قبلت فقام وحيانى منحنياً . ثم قبل الأرض عند الباب وتركنى قائماً .

ولم أذق طعم النوم فى تلك الليلة بعد انصراف الرجل فإنى ما كدت أفيق من صدمة الوزارة حتى صدمت بخطبة ابنة السلطان .

عجباً لنفسى ! أما كنت أتحدث فى ماهوش عن علية ؟ فما الذى غير نفسى منذ رأيت وردخان ؟ أهو القدر يسخر منى ؟ أم هذا كله خيال

أهذى فيه كما يهذى المحموم فى بحرانه ؟

ولمست وجهى بيدى فوجدته يتقد ، وعضضت بنانى فآلمنى حتى كدت أصيح جزعاً . ولكن ذلك كله لم يزل عنى الشك وبقيت أحسب أننى كنت حالماً . ألا يراجع الإنسان نفسه وهو يحلم فيخيل إليه أنه يعض بنانه أو يحرك لسانه أو يلمس وجهه حتى إذا طلع الصباح وجد أن ذلك كله كان حلماً ؟ أين الحد الذى يفرق بين الأحلام والحقائق ؟

وقلت أخرج إلى الناس أسألهم لعل ذلك يهدينى . فخرجت أسير نحو بيت صديقى كمال الدين فلما طرقت الباب سمعت الصوت الذى يهزنى . ولما حييت « نجوى » سألت نفسى مرة أخرى : أأنا فى يقظة أم لا أزال أهيم مع أشباحى ؟ . وسمعتها ترحب بى فكدت أثب إليها وآخذها بين ذراعى لأرى إذا كنت أرى أمامى جسداً أم كل ما أراه صوراً وأوهاماً .

ولكنى تماسكت وقلت إن ذلك لا يجدينى شيئاً ، فلا سبيل إلى برهان قاطع يذهب عنى شكوكى . وما الذى يدلنا معاشر الأحياء على أن حياتنا هذه كلها ليست سوى صور تمر علينا فى حلم مستمر فى أوهامنا .

ولاحظت « نجوى » العزيزة اضطرابى فنادت أخاها ، فأقبل كمال الدين علينا فحيا باسما ومد يده إلى فسألته مبادراً :

ــ أتستطيع يا صديقى أن تخلو معى ساعة ؟

فانصرفت « نجوى » وقد علت وجهها حمرة زادتها حسناً . فلما صرنا وحيدين قلت له هامساً :

ــ أأنا أراك حقاً ؟ أنحن فى يقظة يا صديقى ؟ أسمعنى صوتك لعله

يهديني . ولكن ما جدوى ذلك فلعل الذى يجيبنى ما هو إلا خيال ! وما أزال هائماً فى أحلامى .

فظهر على كمال الدين شيء من الارتياع وأجاب متماسكاً :

— لا بأس عليك يا سيدى .

فقصصت عليه قصة السلطان منذ عرض على الوزارة إلى أن أرسل إلى يعرض على زواج ابنته وقلت آخر الأمر :

— ولست أجد سبيلا إلى أن أومن أننى لست حالماً . فترفق كمال الدين بى وجعل ينصرف بى فى شجون الأحاديث فداخلنى ارتياح أعاد إلى اطمئنانى وبدا لى أننى قد أكون فى يقظة حقـًّا .

وخطرت لى عند ذلك فكرة كأنها كانت من إلهام الحق . فقلت مسرعاً حتى لا أجد فرصة للتردد .

— أتزوجنى « نجوى » ؟

فنظر كمال الدين إلى فى دهشة ثم رفع يده فربت على كتفى وقال :

— لا بأس عليك يا سيدى ؟ ألا تحب أن تشرب القهوة معى؟

فقلت له جادًّا :

— إذا كنت تعرف أننى لست فى منام فأجب عن سؤالى : أتزوجنى « نجوى » ؟

فأطرق كمال الدين مليًّا ثم قال :

— لو كان الأمر لى لقضيت فيه راضياً .

فقلت مبادراً :

— وهل كنت لأرضى برأيك أنت ؟ ألا تسأل « نجوى » ؟

فقام كمال الدين ولا يزال فى دهشة من المفاجأة وتركنى أدير فى نفسى كل ما مر بى .

وعادت إلى صور شتى تساورنى حتى أعادت الشكوك إلى نفسى . أأنا فى يقظة حقاً ؟ لم تكن علية إلا خيالا يخادعنى به قلبى . ولكن « نجوى » ألم تكن تحدثنى وتناقشنى وأراها قطعة من الحياة أمام عينى ؟ كانت « نجوى » أمامى فتاة ساذجة ليس حولها بريق ولا زخرف . أحدثها فتدرك وأحس فتستجيب .

أتكون هى الأخرى من صناعة خيالى ؟

وأقبل كمال الدين راجعاً يبدو عليه شىء من القلق .

فقلت له مبادراً :

— لا بأس عليك إذا هى لم ترض بى . إنها عندى . . .

ولكنه قاطعنى قائلا :

— معاذ الله يا سيدى أن يخيب ظنك وظنى . ولكنى أسأل نفسى ألا تكون . . .

فأدركت أنه يشفق على أن أكون قد أخطأت فى اختيارى . لك الله يا صديقى !

فقلت له : « اجلس إلى جانبى فإنى محدثك حديثاً » .

ثم قلت له ، وكان صوتى متهدجاً :

— كنت فى شبابى أرى قمم الجبال من بعيد تغطيها الثلوج الشهباء

وأرى أشعة الشمس تصبغها عند الغروب وعند الشروق فتلونها ألواناً ساحرة تخلب النظر والفؤاد . وكم تمثلتها وتصورت ما فيها من بهاء وكنت أحس فى نفسى دافعاً لا يقاوم يدفعنى إلى توقل الصخور والصعود إلى تلك القمم الساحرة .

وهكذا قضيت زمناً أهيم فى خيالى وأنا ناظر نحوها وقلبى متعلق بالتسامى إليها . ولم أستطع أن أقاوم نفسى فخرجت أسعى لأبلغها . وكنت أتصور ما تخبئه لى تلك القمم اللامعة من كنوز وصور باهرة ومسارح ساحرة فسافرت سفراً مضنياً تمزقت فيه أعضائى وخارت فيه قواى من نضال الصخور ومحاورة ثنايا الشعاب . وكدت أهلك جوعاً وبرداً فلم يمسكنى إلا الأمل الذى كان يملأ قلبى . وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف يغلبنى استندت إلى الأمانى التى تجيش فى صدرى فتدفعنى وتزيل آلامى . كنت دائماً أنظر إلى القمة وأمنى النفس بما لا يزال أمامى . وأخيراً بلغت القمة وسقطت من الإعياء وخانتنى أنفاسى . ثم كادت الخيبة تقتلنى . ماذا رأيت هناك ؟ تلفت حولى فلم أر إلا صخوراً مثل الصخور وكهوفاً مثل ما مررت به فى صعودى . وكانت القمة جرداء صماء كالحة باردة . فسألت نفسى أين البهاء والرونق ؟ وأين الألوان الزاهية والأضواء الباهرة ؟ .

لقد كادت الخيبة تقتلنى . وعدت أدراجى أجر قدمى وأجادل غرورى حتى عدت إلى السهل ونظرت إلى القمة وأنا أتهالك على المروج الخضراء . فرأيت القمة لا تزال تلمع وتصبغها الألوان الساحرة كما كانت من قبل تصبغها . فصحت فى حنق : أيتها القمم الساخرة !

ولقد كان هذا هو شعورى عندما فارقنى رسول السلطان وجلست إلى نفسى أراجعها .

ثم قلت فى لهفة : أرضيت « نجوى » بزواجى ؟

فقال كمال الدين مطرقاً :

ـــ لقد لمحت السعادة عليها .

فقلت : أتكون وكيلها ؟

فقال كمال الدين : قد زوجتكها .

ومد إلى يده فخطفتها وقلبى يرفرف كالطائر فى قفصه وقمت مسرعاً لم أتكلم بكلمة حتى بلغت دارى لا أتلفت إلى يمين ولا إلى شمال وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى ربى .

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ودخلت بين عمده فانفرج لى صف الحراس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس السلطان .

وهناك لقينى علاء الدين وقرب إليه مكانى وغمرنى ببشاشته وحيانى . ولما استقر بى المجلس واستأنست وهدأ جأشى وذهب عنى حيائى أفضيت إليه بما استقر عليه رأيى واعتمدت على الله فلم أخف عنه كلمة تجيش فى صدرى .

وقد سمع قولى هادئاً عاطفاً ، حتى إذا فرغت من حديثى سألنى الدعاء وقدمنى لأكون إماماً فى الصلاة .

وهأنذا اليوم فى جانبولاد وسائر قصتى معروف لا يخفى على أحد ، فقد صرت إمام السلطان أذهب كل يوم إلى مسجده الذى بناه ليكون لى

مدرسة أعلم فيه الناس مما علمنى ربى ، فلعلهم يوماً يبلغون ما يحب لهم علاء الدين من خير فى الأولى والآخرة . وقد وهب لى السلطان بيتاً أعيش فيه مع «نجوى» بعد أن أعفانى من زواج الأميرة . حفظها الله وأمتعها وبارك لها وفيها .

وإننى اليوم أقضى أيامى بين كتابى وصلاتى ، وأذوق السلام فى أهلى وولدى . لكم تغيرت بفضل قلبك الطاهر يا « نجوى » .

ولست اليوم أحمل لريمة إلا الرحمة والرثاء . مسكينة هى أسأل الله أن يلطف بها فما أولى القلوب الثائرة بالرثاء .وهى تقيم فى جناح من الدار وحدها حتى لا أبعدها عن ولدها .

وقد أتيت بولدى عجيب إلى حضرة السلطان كما شاء فأرضاه حسن خطه وأعجبه إنشاء رسائله فجعله خازناً لكتبه . بارك الله للسلطان فى ملكه ورعيته .

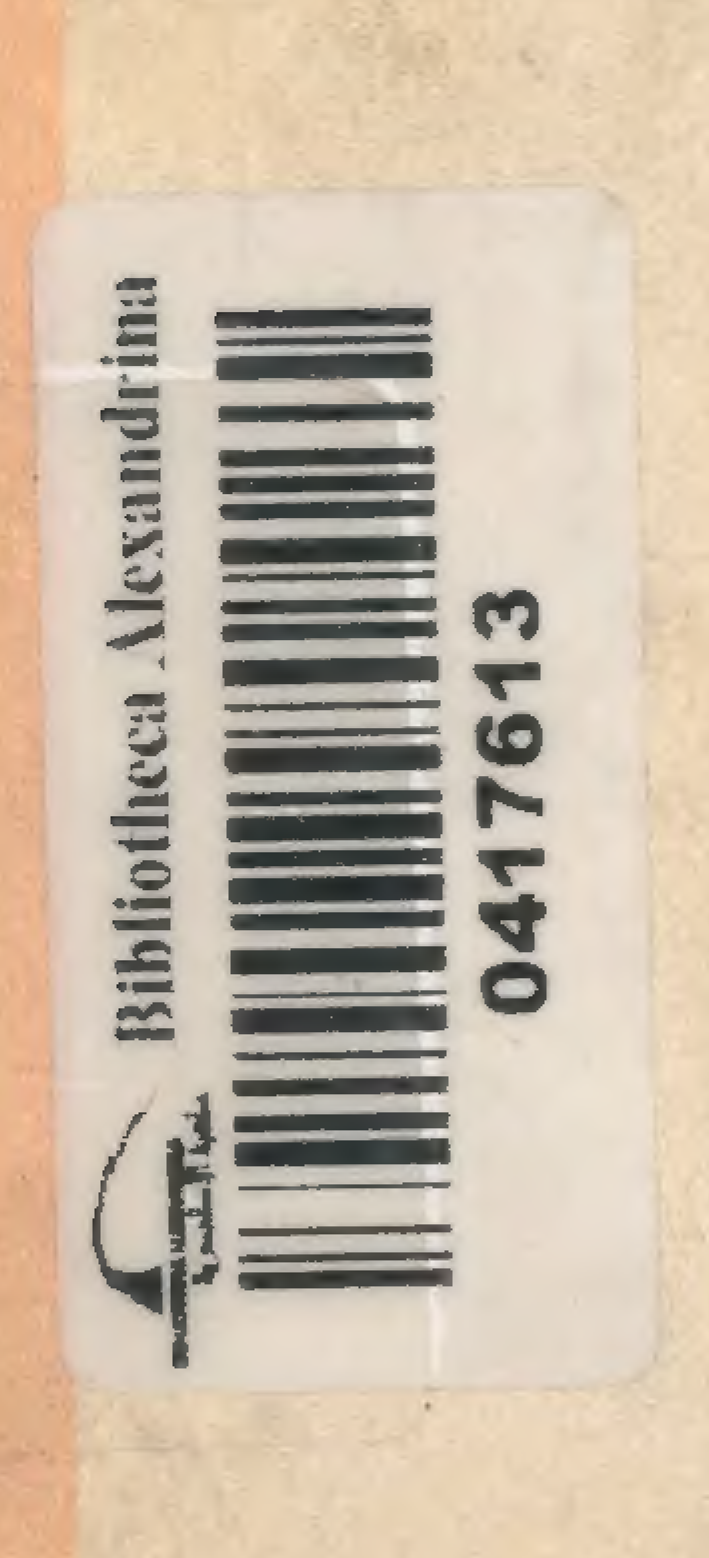
وأما جميلة ابنتى فقد زوجها السلطان لوزيره الذى اخترته له ليحمل الأعباء عنى — صديقى وتلميذى كمال الدين وفقه الله إلى رضاه . وأما صديقى أبو النور فقد كان أحب شىء عندى أن يشاركنى فى سلامى وأمنى ، ولكنه لم يرض أن يفارق ماهوش فهو لا يحب أن يدفن عظامه إلا فى ثراها .

ما أسعد ذلك الصديق الطيب بقلبه الكبير . إنه يعطى ولا يحب أن يأخذ . ويعاشر الناس كما يجدهم راضياً . ولم أره يوماً يضيق بالحياة .

وقد أردت أن أكتب للناس قصتى فعكفت فى شهر رمضان أتسلى بها بين قيامى وسحورى . لعل كلمة منها تسرى عن الناس هما أو تدخل إلى قلبهم سروراً أو لعل خطرة تخطر على قلبهم عند قراءتها تحمل إليهم حكمة أو عبرة .

وقد وقفتها على أهل جانبولاد وجعلت منها نسخاً فى مسجدها ، لعل الله يجعل لى منها ثواباً إذا ترحم الناس على كاتبها جيلا بعد جيل .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣



٣٥٠ م